Nahas Publishing House

سلسلة روايات الجيب

الرجل الذي كره النساء

أ - ١٢٠

A - 120

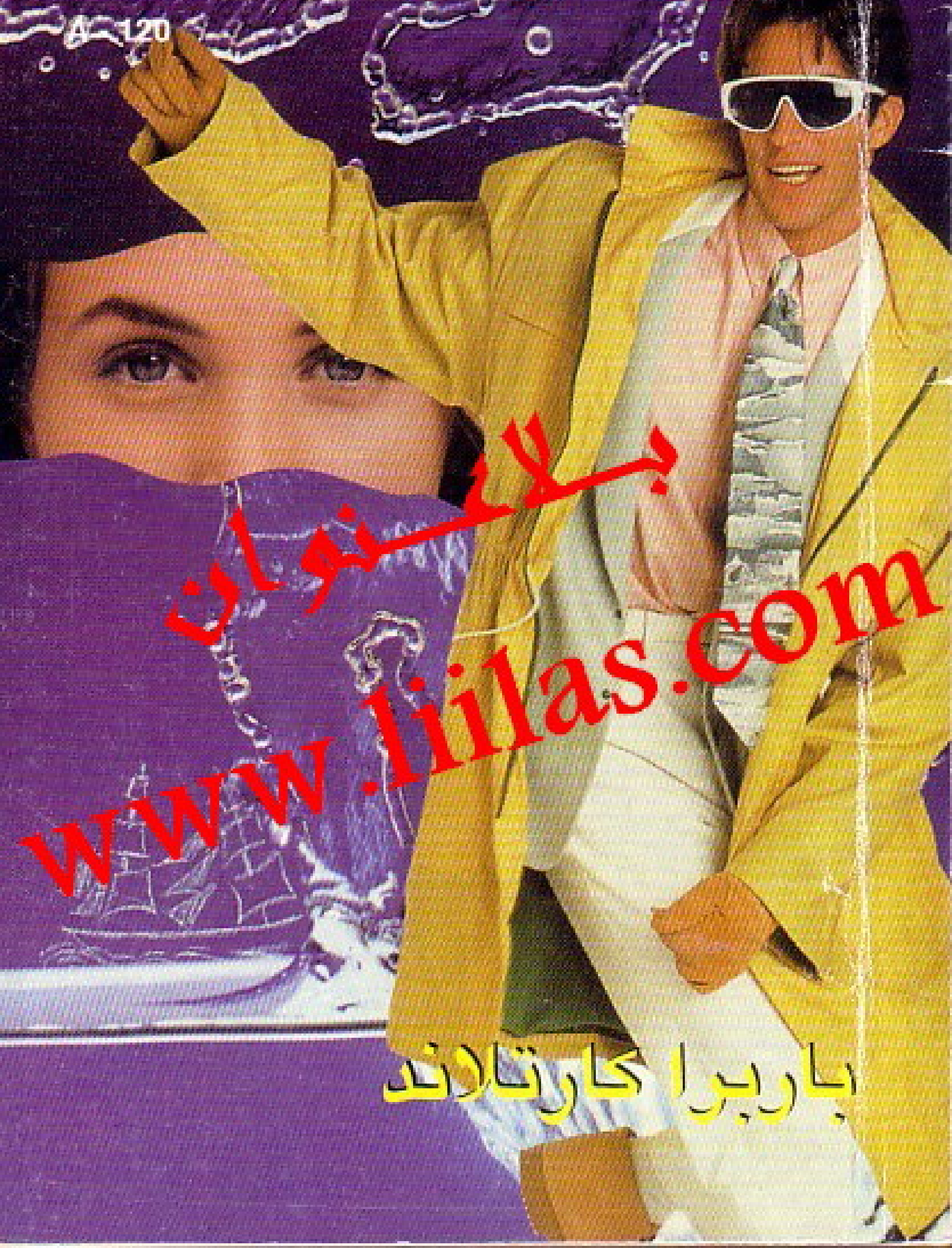

بلا عنوان
www.liilas.com

باربرا كارتلاند

الرجل الذي كره النساء

نظر اوزبورن، وتملكه الذهول وهو يرى شخصاً تحت السرير مستغرقاً في النوم، ولم يكن به حاجة إلى الاقتراب من ذلك الشخص.

فقد عرف ذلك الرأس النائم على الوسادة التي لا بد ان شيكارا قد احضرتها عن السرير، والمعطف المخملي الاسود المبطن بالفرو والذي غطت به نفسها.

www.liilas.com

الفصل الأول

١٨٥٣

«يجب أن أذهب، فقد أصبح الوقت متأخراً.»

فأطلقت آينز شنغاري صرخة احتجاج ثم قالت: «آه، كلا يا أوزبورن، كلا لا يمكنك أن تذهب بهذه السرعة.»

فقال وهو واقف أمام المرآة: «ما أشد قدرتك على الإقناع، يا آينز.»

فقالت اللايدي شنغاري بصوت خافت: «أحب أن أقنعك، وأن أكون معك إنك تعلم ذلك. ولكن هذا صعب أحياناً.»

«إنني ذاهب غداً إلى الريف، فأنا بحاجة إلى النوم كما أنك أنت أيضاً بحاجة إلى ذلك.»

كان معروفاً عن الماركيز قسوته البالغة بالنسبة إلى صداقاته.

لقد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره وهو ما زال يقاوم كل الوسائل والطرق لاجتذابه إلى زواج محترم. فكان دوماً يفضل الصداقة على الزواج.

كان واثقاً من أن هذه هي نية آينز شنغاري وقد جعله ذلك أكثر تصميماً على الهرب.

لم يكن ثمة شك لدى الماركيز في أنها رائعة الجمال

www.liilas.com

بشكل غير عادي. ولكن شيئاً كان ينقصها لم يستطع أن يدرك كنهه تماماً.

كان بإمكانها أن تضحكه بسرعة بديهتها، حيث لا يمكن ذلك لأكثر الناس.

قال: «يجب أن أذهب، يا آينز. وشكراً لك على هذا العشاء، وآمل أن نتمكن من تناول الغداء معاً في أقرب وقت.»

ولكنها عادت تقول: «إبق قليلاً، يا أوزبورن... لا أستطيع أن أدعك تذهب الآن.»

كان في صوتها نبرة ممزوجة بتصميم يكاد يبلغ حد الذعر إلى أن تبقيه، ما دفع الماركيز إلى أن ينظر إليها مدهوشاً.

عند ذلك، سمع صوتاً خافتاً من الغرفة التي تحتهما، ولكنه أدرك بأن آينز شنغاري سمعته هي أيضاً ما جعلها تقول بصوت عالٍ: «ابقى قليلاً، يا أوزبورن.»

سار بسرعة ليس نحو الباب الذي سبق ودخل منه، ولكن إلى الباب الآخر الذي ينفذ إلى غرفة الملابس.

كانت الغرفة غارقة في الظلام، ولكن الماركيز اجتازها بخطوات قليلة إلى النافذة فأزاح ستائرها.

كان الليل يضيئه النجوم، بينما القمر كان يبرز، من حين لآخر، من بين الغيوم.

نظر الماركيز من النافذة، وكما توقع، كانت تعلو السطح الذي تحتها بحوالي إثني عشر قدماً، ثم نفس المسافة إلى حيث الاصطبلات.

ولم يضيع وقتاً، إذ نزل من النافذة متعلقاً بها بذراعيه. وبخبرة الرياضي الماهر، قفز إلى السطح الذي يقع تحتها.

ثم سار على حافة حيث انزلق إلى الأرض متمسكاً بأنبوب المياه.

شعر بكم سترته المسائية يتمزق تحت الابط، ولكن أنّى للخائط أن يتصور ما سيتعرض له أثناء ارتدائه هذه السترة التي كان من المفروض استعمالها عند تناول العشاء فقط؟

كانت الاصطبلات الخالية معتمة، فوقف الماركيز في الظلمة المطلة من أحد الأبواب حيث رفع بصره إلى النافذة التي كان قد قفز منها.

ولم ينتظر طويلاً إذ أن رأس رجل أطل منها متفحصاً السطح تحته ثم الاصطبلات أسفل.

بقي الماركيز جامداً في مكانه. لقد ميز اللورد شنغاري بوضوح تام، وأدرك أنه قد نجا لتوّه من شرك محكم.

فكر في أنها لا بد الحاسة السادسة التي جعلته يشعر بأن إصرار آينز على بقائه، هو غير عادي، ولربما لديه قوة ملاحظة غير عادية بالنسبة إلى النساء.

وإذ رآه ينظر من النافذة مفتشاً عنه، تأكد الماركيز عند ذاك، من أن المؤامرة قد وضعها الزوجان معاً.

عند ذلك، تذكر ما سبق وسمعه في النادي من أن اللورد شنغاري غارق في الديون، وأيضاً من أشياء متفرقة كانت آينز تخبره بها، تأكد من أنهما كانا يجدان صعوبة في التوفيق بين دخلهما ونفقاتهما.

فهل هناك ما هو أفضل، في نظرهما، من أن يصبحا في وضع يتمكنان فيه من ابتزازه، بشكل منطقي بطبيعة الحال، وهو بمثل هذا الثراء؟

كانا يعلمان أنه لن يرضى بأن يتورط في فضيحة تبلغ

المحاكم، ما دام بإمكانه أن يدفع مبلغاً محترماً يغطي به فعلته الشائنة تلك.

وحدث الماركيز نفسه بأنه كان أحمق.

وعندما صفق اللورد شنغاري النافذة بعنف، أخذ هو يدمدم قائلاً، الويل لتلك المرأة، ولكل النساء. إنني أكرههن جميعاً... دوماً كنت أكرههن.

وأدهشه ما شعر به من غضب عنيف، ومع هذا فقد كان في قوله جزء من الحقيقة، لأنه كان دوماً يكره النساء.

لقد رأى في تصرف آينز هذه الليلة، نموذجاً لخداع النساء ونفاقهن.

والآن، لم يعد أمامه سوى أن يشتم نفسه لكونه كاد يوقع نفسه في مأزق كان مستحيلاً عليه التخلص منه محتفظاً بأي من كرامته، وذلك بتهور وطيش فتى حدث.

وأخيراً، بعد أن انتظر مدة كافية أصبح معها واثقاً من أن اللورد شنغاري لم يعد يتلصص من وراء النافذة، استدار ليسير مجتازاً الاصطبلات التي كان يسمع فيها صوت حركات الجياد القلقة في مرابطها، وصفيراً كان يقوم به أحياناً سائس قد تأخر في الاصطبل، فهو ينظف حيواناته قبل أن يذهب إلى فراشه.

كانت هناك روائح الجلود، والأعلاف، وجلود الخيل التي كانت مألوفة جيداً للماركيز.

لقد جعلته يفكر في الريف، وأعادت إلى نفسه شوقاً مفاجئاً للتحرر من لندن وفضول مجتمعها وأقاويله التي كان يكرهها خصوصاً عندما تشمل شخصه بالذات.

وعندما قطع مسافة لا بأس بها، توقف فجأة وقد تذكر

أنه مهما كان مقدار مهارته في الهرب من بيت شنغاري، فقد ترك خلفه أثرين منه هما قبعته وعباءته المسائية.

ولم يكن قد فكر فيهما إلا بعد أن لسعته رياح شهر كانون الثاني (يناير) الباردة فارتجف شاعراً بالصقيع يصفع جبهته.

لا بد أن شنغاري قد رأى ذينك الدليلين في الردهة، وهو الآن يتحدث مع زوجته عن خطة يمكنهما بها استغلالهما لمصلحتهما.

وأخذ الماركيز يصرف بأسنانه غيظاً.

وعاد يحدث نفسه بأنه يستخف بسمعته حقاً.

لم يكن هناك ما يستطيع عمله الآن. ولكنه، عندما تابع سيره، أخذ يفكر غاضباً في قبعته وعباءته المسائية المبطنة بالساتان والتي موضوعة الآن على كرسي في تلك الردهة الضيقة.

قال لنفسه بعنف، إنني أستحق كل ما يحدث لي. ففي مثل عمري وخبرتي، كان عليّ أن لا أثق بأي رجل، فكيف بامرأة؟

ولم يهدىء من ثائرته تعنيفه ذاك لنفسه وبقي مستمراً في طريقه مجتازاً الاصطبلات إلى حيث استدار إلى شارع مقابل للمنازل.

ولم يكن قد اجتاز أكثر من عدة ياردات عندما شعر بشيء يسقط عند قدميه ما جعله يقفز إلى الخلف وقد أدرك أن ذلك الشيء لو كان وقع على رأسه لأرداه جثة هامدة.

نظر إلى ذلك الشيء فإذا به حقيبة سفر. حقيبة جميلة غالية الثمن من ذلك النوع الذي تحمله النساء عند السفر في العربة أو القطار.

حدق الماركيز فيها بدهشة، وعندما رفع رأسه ليرى المكان الذي سقطت منه، سمع صوتاً يصرخ: «النجدة، النجدة.»

فنظر إلى الاعلى، وذهل حين رأى فوق رأسه بالضبط امرأة تتأرجح على حبل لم يكن طويلاً بما فيه الكفاية، فهو لا يصل إلى الأرض بل كان يعلو عنها بما يبلغ الستة أقدام على الأقل.

وعادت تصرخ: «النجدة، النجدة.»

ودون أن يدرك ما كان يقوم به، تقدم إلى الأمام ماداً ذراعيه إلى أعلى. وعندما أمسكها بقوة قال لها: «أتركي نفسك الآن. إنني لن أدعك تسقطين.»

تركت الحبل وساعدها على النزول إلى أن لامست قدماها الأرض.

وعندما تركها، وقفت تسوّي من ثيابها وتجذب أكمام السترة الضيقة التي ترتديها.

ثم قالت: «أشكرك. كنت خائفة من أن لا يكون الحبل طويلاً إلى حد كاف، ولكن كان عليّ أن أغامر.»

فسألها بصوت شابته نبرة تهكم: «أين هو السيد المفروض أن يساعدك في الهرب؟»

فأجابته المرأة بحدَة: «ليس الأمر كما تظن.»

وأمكنه الآن أن يرى على ضوء القمر أنها صغيرة السن، فهي لا تعدو أن تكون فتاة صغيرة، وعندما رفعت الريح حوافي قبعتها، رأى وجهاً صغيراً مثلث الشكل وعينين كبيرتين.

سألها: «ألست هاربة مع أحد؟»

أجابت: «كلا أبداً، فأنا هاربة من رجل وليس إلى رجل.

وإذا شئت الحقيقة، فأنا أكره الرجال... أكرههم جميعاً.»

فضحك الماركيز، وعندما نظرت إليه بدهشة، قال: «هذا ما كنت أحدث به نفسي للتوّ، إنما مع فارق واحد هو أنني أكره النساء.»

فلم يبد عليها الاهتمام بتوضيحه هذا، وإنما انحنت تلتقط حقيبتها.

كانت الحقيبة ثقيلة تقريباً بالنسبة إليها، ولكنها حملتها بيديها الاثنتين، وكان جسمها غير ناضج تماماً ما جعل الماركيز يقول لها: «إذا كنت مصرة على الهرب بمفردك فالأفضل أن تعاودي التفكير في الأمر. إذ لن يكون في إمكانك أن تتدبري أمورك من دون شخص يرعاك. كوني إذن فتاة طيبة، وعودي إلى بيتك وعاودي التفكير في ذلك. إني لا أظن ان أمورك سيئة إلى هذا الحد الذي تظنين.»

«ليست لديَ نية للقيام بهذا.»

فقال: «من واجبي إذن أن أجعلك تقومين بذلك.»

فأطلقت صرخة ضعيفة وسقطت الحقيبة من يدها، وهذه المرة على حافة قدمه. وقبل أن يدرك ما حدث، كانت تركض في الطريق مبتعدة عنه بسرعة.

فصرخ الماركيز في أثرها: «قفي. إنه أمر لا يعنيني قلت لك قفي.»

والتقط الحقيبة لكي يلحق بها، ولكنه في هذه اللحظة رأى شخصاً يخرج من الظل في آخر الشارع ثم سمع الفتاة تطلق صرخة ذعر.

وركض الماركيز بسرعة إلى حيث كانت الفتاة تناضل وهو يحمل الحقيبة التي كانت ثقيلة جداً في الواقع.

رآها تناضل رجلاً من المتشردين المتسكعين في الشوراع ليلاً ونهاراً أملاً في اكتساب قروش معدودات من وراء الإمساك بحصان أو، إذا سنحت له فرصة بالطبع، من نشل الجيوب.

وقال الرجل عندما وصل الماركيز إليه: «سأمسك بها وأسلمها إلى الشرطة.»

وكانت الفتاة تصيح به بعنف: «دعني. كيف تجروء على لمسي؟» وكانت تجذب يدها التي كان الرجل يمسك بها بيديه الاثنتين.

فقال له الماركيز: «اتركها.» ثم أخرج من جيبه قطعة نقود ألقى بها إلى الأرض، قائلاً: «هيا، إذهب الآن.»

فانحنى الرجل يلتقط قطعة النقود، ثم ابتعد مسرعاً.

وبينما وقفت الفتاة تمسد معصمها، قال الماركيز بهدوء: «لا حاجة بك للهرب مني. فما تفعلينه ليس من شؤوني. ولكنني أظنك رأيت ما ينتظر الفتيات الصغيرات اللاتي يطفن الشوارع وحدهن في مثل هذا الوقت.»

«كنت أرجو أن أعثر على عربة شعبية.»

فقال: «تجدين واحدة في ساحة غروسفينور، وهو المكان الذي أقصده، وإذا شئت سأحمل عنك حقيبتك هذه.»

فقالت: «أشكرك. ظننت أن من الممكن أن أجد واحدة من تلك العربات الصغيرة في ساحة بيركلي.»

وسكتت برهة، ثم أضافت تقول: «في الواقع، لم أركب من قبل قط في مثل تلك العربة، وهذه في الواقع، هي نفسها مغامرة.»

فقال: «إذا كنت تتطلعين إلى مغامرة، فعليك أن تفكري

في أشياء أقل خطورة من الطواف في أنحاء لندن في منتصف الليل.»

فأجابت بحدة: «إنني لا أقوم بذلك لمجرد المتعة. إن عليّ أن أهرب. وإذا بقيت...»

وسكتت عن الكلام وكأنها شعرت بأنها وثقت به أكثر من اللازم. وهكذا سارا صامتين.

وعندما وصلا إلى منعطف ساحة كارلوس، صفعه البرد القارس فارتجف، كما لاحظ أن رفيقته ترتجف هي أيضاً.

سألها: «لا بد أنك أحضرت معك معطفاً.»

فقالت: «إن لديّ شالاً في حقيبتي. ولكن كان من الصعب أن أنزل بالحبل بينما أغطي كتفي بشيء.»

فقال: «هذا صحيح. فهذه طريقة غير مريحة يترك فيها الشخص مسكنه.»

فقالت: «لقد كان هناك خادم في الردهة، ورأيت أنني إذا حاولت الخروج من الباب الخلفي، فسيراني الخادم الذي ينام في غرفة المؤونة.»

«لقد فهمت ورطتك.»

وسمعته يضحك وهو يقول هذا، فقالت غاضبة: «ربما تجد في هذا الأمر ما يبعث التسلية إلى نفسك، ولكن كان عليّ أن أخطط للأمر بعناية بالغة. وعندما شعرت بأنك ستفسد عليّ كل خططي، كان من الطبيعي أن أهرب.»

فقال: «هذا طبيعي.»

«إن كل ما أريده الآن هو عربة شعبية.»

فسألها: «إلى أين تريدين الذهاب؟ إن سائقي العربات لا يحبون القيادة لمسافات بعيدة في هذا الوقت من الليل.»

«إنني ذاهبة إلى مصر.»

فكرر الماركيز السؤال ذاهلاً: «إلى مصر؟»

«إنني ذاهبة للبحث عن أبي.»

«وهل تنوين حقاً السفر إلى هناك بمفردك؟»

فقالت: «ليس لديّ من يذهب معي. وأنا أريد أن الحق بالقطار المبكر إلى ساوثمبتون قبل أن يعلم عمي باختفائي.»

فاستدار الماركيز ينظر إليها بدهشة، عند ذلك، تذكر ورطته فجأة ومن ثم تصوّر حلاً ممكناً لها.

كان يخته راسياً في ساوثمبتون، فإذا ما ترك لندن قبل أن يتمكن شنغاري من زيارته ليعيد إليه قبعته ومعطفه، فهذا يعني أنه قد نجا من الشرك.

وبدا له واضحاً أنه عندما يصبح خارج انكلترا، فإن شنغاري سيضطر إلى البحث عن أحمق آخر يدفع له ديونه.

ذلك أنه سيكون من الصعب عليهما أن ينتظرا عودته إذا كان الدائنون حقاً يشددون الضغط عليهما بالشكل الذي أرادته آينز أن يعتقد.

وأدرك، وقد تملكه الشعور بالفوز، أن هذا هو بالضبط ما عليه أن يفعله.

إنه سيبحر بيخته على الفور إلى البحر الأبيض المتوسط كما كانت نيته على كل حال، منذ شهر أو نحو ذلك.

والأكثر من ذلك، كما رأى، هو أنه سينتصر بذلك على آينز ومشروعها الحقير هذا.

وتمتم يقول: «تباً لذلك كله. هذا ما سأفعله.»

ثم تذكر أنه ليس بمفرده.

سألته رفيقته قائلة: «هل قلت شيئاً؟»

فأجاب: «كنت أحدث نفسي فقط.»

وكانا في هذه الأثناء قد وصلا إلى ساحة غروسفينور ولكن عندما نظر الماركيز إلى المكان الواقع بالقرب من الحديقة والذي كان يوجد فيه عادة العربات الشعبية التي تقودها جياد هزيلة، لم يجد عربة واحدة واقفة.

وقالت رفيقته بنبرة خائفة: «أرى أن الوقت متأخر حقاً.»

فأجاب: «نعم، إنه كذلك. ولكن لدي اقتراحاً قد يساعدك.»

فسألته: «وما هو؟»

فقال: «إنني أنوي ترك لندن، أنا أيضاً، هذا الصباح. ومن الصدف هو أنني مسافر كذلك من ساوثمبتون، وعلي أن أعرف مواعيد القطارات.»

وسكت لحظة حيث أنه كان قد وصل إلى بيته، ثم عاد يقول: «إن الخط المباشر، كما أظنك تعلمين، يسير من ناين آلمز المحطة التي قبل كلافام جانكشن. فإذا أحببت أن تنتظري إلى أن أبحث عن ذلك في برادشو، يمكنني أن أقول إن خدمي يمكنهم أن يجدوا لك عربة شعبية تأخذك إلى ساوثمبتون.»

فسألته: «ولماذا لا أذهب معك؟»

عند ذلك نظر إليها، وعلى الضوء المنبعث من القمر الذي كان قد برز من وراء الغيوم، رأت الدهشة مرتسمة على وجهه.

قالت بمذلة: «إني... آسفة. لم يكن لي أن أتقدم بمثل هذا الطلب.»

فأجاب: «بل أظنه طلباً معقولاً تماماً. والمعذرة، فقد كان عليّ أن أفكر أنا نفسي بذلك. ولكنني لم أتعوّد

مقابلة الفتيات الصغيرات اللاتي ينوين السفر إلى مصر.»

فقالت بلهجة مشاكسة: «إنني معتادة على الأسفار تماماً، فليس بك حاجة إلى القلق عليّ.»

فأجابها: «إنني لست قلقاً. ولكنني على استعداد لمرافقتك إلى المحطة إذا كان في هذا ما يساعدك.»

وتقدم، وهو يقول ذلك نحو باب منزله.

كان منزلاً كبيراً نظرت إليه رفيقته بشيء من الشك قبل أن تقول: «أظن ما كان... عليّ أن أحضر... حقاً معك إلى منزلك...»

فأجاب: «إذا كنت تعنين لياقة هذا العمل، فأنا لا أرى فرقاً يذكر بين هذا العمل، وبين تركك منزلك بواسطة حبل، وإذا كنت تشكين بنواياي، فهل لي أن أؤكد لك بأنني قد ذكرت لك الحقيقة عندما قلت لك انني أكره النساء؟»

فقالت وهي تبتسم ابتسامة رآها هادئة: «تماماً كما أكره أنا الرجال.»

فقال: «نحن إذن متفقان في هذا الأمر على الأقل. وأظن من الأفضل أن تدخلي فلا تبقي خارجاً في هذا البرد الذي قد يسبب لك التهاباً رئوياً.»

فقالت بكبرياء: «شكراً. إنني، في الواقع، أشعر ببرد شديد.»

قرع الماركيز الجرس ففتحه على الفور الخادم الجالس في الردهة.

وبانت عليه الدهشة وهو يرى سيده دون قبعة ولا معطف، ويسير على قدميه حاملاً حقيبة.

ووضع الماركيز الحقيبة في يد الخادم، وهو يقول:

«أريد شراباً دافئاً يا جايمس وبعض الطعام. أحضر ذلك كله إلى غرفة المكتبة. كذلك أخبر هاينت ليحضر إليّ هناك.»

«حسناً، يا سيدي.»

فمشى الماركيز مجتازاً الردهة ليفتح باباً في آخرها. وتبعته الفتاة إلى غرفة المكتبة الواسعة التي تشرف نوافذها على الحديقة خلف المنزل.

وكان هناك عدة مصابيح، فأدار الخادم الذي كان تبعهم إلى الغرفة، مفتاح الغاز. وكانت غرفة المكتبة مؤثثة بشكل مريح، مبطنة بالكتب ويبدو فيها الترف والرفاهية بشكل واضح.

اتجه الماركيز إلى مكتبه حيث فتح عدة أدراج قبل أن يجد ما كان يبحث عنه. ثم تقدم نحو المدفأة حيث كانت الفتاة قد جلست مادة يديها فوق النار تدفئهما.

قالت: «كم كنت غبية إذ لم أحضر معي معطفاً. كان بإمكاني أن ألقي به من النافذة مع الحقيبة.»

فأجاب: «تلك التي أخطأتني بعدة إنشات، ثم أجد نفسي بعد ذلك ملفوفاً بمعطف ثقيل ما تثور معه أعصابي.»

«لم أكن أتوقع أن يكون هناك شخص في الشارع في مثل هذا الوقت من الليل.»

ونظرت إليه، فأدرك أنه لم يخطىء في ظنه أنها جميلة ذات عينين كبيرتين.

قال الماركيز: «أظن علينا الآن أن نتعارف وأعترف بأنني فضولي جداً لمعرفة السبب في قيامك بهذه الرحلة الطويلة الشاقة بمفردك.»

«اسمي هو شيكارا بارليت.»

فكرر يسألها: «شيكارا؟ لم أسمع قط بهذا الاسم من قبل.»

فقالت: «إنه هندي. فقد كان أبي في رحلة استكشاف أجزاء من الهند قبل ولادتي مباشرة وقالت أمي إنه كان مصمماً على إعطائي اسماً هندياً لاعجابه باسمائهم تلك.»

«هل كان والدك رحالة مستكشفاً؟»

«كلا، بل عالم آثار.»

فهتف الماركيز قائلاً: «طبعاً، إنه البروفيسور ريتشارد بارليت. لقد سمعت به. لقد سبق وقرأت كتاباً له عن اكتشافاته في بلاد فارس.»

فقالت شيكارا: «إن والدي مشهور. ولكنني لم أستلم منه خبراً منذ حوالي التسعة أشهر، فأنا قلقة لأجله... قلقة جداً لما قد يكون حدث له.»

«هل قلت إنه في مصر؟»

«نعم، لقد سافر إلى هناك في الربيع الماضي للاجتماع برجل يدعى أوغست مارييت كان قد قام ببعض الاكتشافات الهامة قرب الاهرام وكان قد كتب إلى أبي عنها ما جعل أبي طبعاً، يقرر الرحيل إلى هناك على الفور، ولهذا طلب من أخيه السيد هاردوين بارليت الذي كنا نسكن معه، طلب منه رعايتي.»

فقال الماركيز وهو يحك حاجبه: «أظن سبق وقابلت السيد هاردوين هذا.»

فقالت: «إذن، فأنا آسفة لأجلك. فهو رجل بالغ العناد والتشبث برأيه، وأنا أكرهه ولو كان لديّ عقل، لقتلته قبل رحيلي.»

فقال ضاحكاً: «هذا تعطش للدم.»

فقالت باستياء: «إن هذا يضحكك طبعاً. ولكنك لا تدري كم تألمت من العيش معه.»

قال: «مهما كانت طباع عمك، فالهرب منه بهذا الشكل هو شيء غير طبيعي. أليس لديك فكرة عن المتاعب التي قد تصادفك، دون أحد يرعاك؟»

«ليس هناك متاعب أسوأ من محاولتي إقناع عمي هاردوين بأنني لا أريد الزواج من اللورد سترود.»

فهتف قائلاً: «سترود؟ إنه عضو في النادي عندنا ولكنه كبير السن.»

فقالت شيكارا: «عمره أربع وأربعون سنة. ولكن عمي يظن أنه سيكون له تأثير رادع عليّ، وحيث انه الوصي عليّ، فهو يقول لي ان ليس أمامي خيار آخر في هذا الأمر... وأن عليّ أن أتزوجه.»

فقال الماركيز: «إني أوافقك على أن هذا شيء سخيف تماماً. فأنت أصغر كثيراً من أن تتزوجي من رجل في سن سترود.»

وتذكر أنه كان قد قابل اللورد سترود، هذا في حفلات برلمانية مختلفة، وأنه تحدث معه مرة في النادي.

كان دوماً يراه رجلاً ثقيل الظل صلب الرأي ولا يستمع إلى رأي أي شخص آخر.

قالت له وكأنها تفشي له سراً: «المشكلة هي أنني وارثة.»

فرفع حاجبيه، بينما تابعت هي تقول: «إني أعلم أن الكلام عن المال هو شيء مبتذل، ولكنني لا أظن اللورد سترود أو الرجال الآخرين الذين يقنعوني بالزواج بكل ذلك الحماس، لا أظنهم كانوا سيفعلون ذلك لو لم يكن عمي قد

أخبرهم بأنني سأكون غنية عندما أبلغ سن الرشد.»

فقال الماركيز لاوياً شفتيه: «ربما تقللين من مبلغ جاذبيتك الشخصية.»

فردت عليه قائلة: «أظن عرض الزواج سيكون أفضل لو لم أكن غنية. فأنا أعرف أنهم يرغبون في أن يضعوا أيديهم على المائة ألف جنيه التي تركتها لي أمي قبل أن تموت.»

فقال: «إنها ثروة كبيرة حقاً.»

فقالت: «هذا ما يظنونه. ولكنني لا أريد أن أتزوج أياً منهم مهما فعل عمي بي.»

فسألها: «ماذا تعنين بذلك؟»

فأجابت: «لقد هددني بالضرب، وبالسجن في غرفتي دون أي طعام عدا الخبز والماء. لقد استعمل كل تهديد ممكن، ولكنني لن أخضع له.. أبداً حتى ولو قتلني.»

كانت تتحدث بعنف لم يستطع معه الماركيز أن يمنع نفسه من الابتسام. فقد كانت صغيرة الحجم هشة المظهر،، ومع ذلك كانت تزمجر كالنمرة.

عند ذلك، أدرك بالنسبة إلى نفسه، أن من الخطأ الكبير أن يتورط مع شيكارا في مأزقها هذا.

ذلك أن مساعدته لفتاة شابة، هو أمر يختلف تماماً عن تورطه في مساعدة وارثة على الهرب من وصيّها الشرعي.

سألها: «لا بد أن لديك أقارب آخرين يمكنك اللجوء إليهم.»

فأجابت: «إذا هم قبلوني، وهذا ما أشك فيه، فهم يخافون جداً من عمي هاردوين إذا هم خالفوه في شيء. فهو كبير الاسرة. لقد كان أبي يقول دوماً ان من الأفضل أن

يضرب الشخص رأسه في صخرة جبل طارق من أن يحاول أن يجعله يغير رأيه في أي شيء.»

وسكتت، ثم عادت تقول بصوت منخفض: «إنه مصمم على أن أتزوج من اللورد سترود، ولكنني انزعج منه حتى انني أفضل أن تلمسني أفعى بدلاً منه.»

فقال: «إنني أفهم شعورك. ولكن، في نفس الوقت...» وسكت.

لقد قرر أن لا يتجادل مع شيكارا، ولكنه سيوضح لها تماماً أن لا علاقة له بمشكلتها، وأنه لن يتورط فيها.

وفتح الدليل الذي كان يحمله بيده، وقلب صفحاته، ثم قال بعد لحظة: «أرى أن هناك قطاراً سريعاً سيتحرك الساعة السابعة صباحاً، فيصل إلى ساوثمبتون الساعة العاشرة إلا عشر دقائق. وهذا يعني أن علينا أن نباشر بالرحيل من هنا حوالي الساعة السادسة.»

فسألته: «أليس هناك قطار أسرع؟ إن خادمات المنزل يستيقظن الساعة الخامسة والنصف وقد يرى أحد الحبل المتدلي من نافذتي.»

فقال وعيناه على الدليل: «هناك قطار يتحرك الساعة السادسة والنصف، ولكنه لن يصل إلى ساوثمبتون قبل الأول، لأنه سيقف في المحطات.»

فقالت: «إذن، فمن الأفضل أن أذهب معك، إذ من غير المحتمل أن يبحث عني عمي هنا.»

فقال موافقاً: «نعم، لا أظن ذلك محتملاً. فأنت إذا سافرت في عربتي، فإن عمك لن يخطر على باله أنك ترافقينني.»

فقالت: «معك حق. وشكراً لك، فهذا ما أرغب فيه.»

وهنا، فتح الباب وبرز منه خادم الماركيز الخاص.

«هل طلبتني، يا سيدي؟»

وكان يتكلم بصوت هادىء منخفض وكأنه كان قد اعتاد على أن يوقظوه في منتصف الليل ليطلبوا منه النزول إلى الطابق الأسفل.

فأجاب الماركيز: «نعم يا هاينت. إننا سنرحل إلى ساوثمبتون الساعة السادسة. وسنستقل اليخت فاحزم كل ما سأحتاجه.»

«هل أضع ملابس للجوّ الحار أم البارد، يا سيدي؟»

فأجاب الماركيز: «قد أذهب إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط وقد اذهب إلى مراكش.»

«حسناً، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «حيث أنه ليس من الضروري إيقاظ مديرة المنزل السيدة كينغدون، خذ هذه السيدة الشابة إلى إحدى غرف النوم حيث يمكنها أن تسوّي من شأنها. وقد طلبت شراباً ساخناً وطعاماً، وأظنه جاهزاً الآن؟»

فقال هاينت: «لقد أخبرنا الطباخ بذلك، يا سيدي ثم أنك ستحتاج إلى طعام للرحلة. هل أجهز سلة كبيرة لشخصين، يا سيدي؟»

فتردد الماركيز لحظة، ثم قال: «بل سلتين، يا هاينت. فأنا واثق من أن السيدة الشابة ستفضل السفر في عربة قطار محجوزة للسيدات فقط.»

«حسناً جداً، يا سيدي.»

وانتظر هاينت إلى أن حملت شيكارا قبعتها ثم تقدمت تسير بجانبه.

قال لها الماركيز: «اطلبي كل ما تحتاجين إليه من هاينت.»

فأجابت: «أشكرك.»

وعندما أصبح الماركيز وحده، وقف يحدق في نيران المدفأة وقد ارتدت أفكاره إلى مشكلته الخاصة.

كان واثقاً من أن الشيء المنطقي الوحيد الذي عليه أن يقوم به هو، كما كان قد قرر، أن يترك البلاد. وإن كان قد غاظه أن يضحي بكبريائه في هذا الهرب.

ولكن البديل لهذا سيكون أكثر إذلالاً، لأنه واثق من أن شنغاري لن يألو جهداً في ابتزاز كل قرش يستطيعه منه، هذا بالاضافة إلى الاساءة إلى سمعته بين أصدقائه.

وحدث نفسه بأن هذا درس يعلّمه بأن يكون أكثر حذراً في المستقبل بالنسبة إلى اصدقائه.

وشعر بالاشمئزاز من هذا الأمر كله، وشعر، مثل شيكارا تقريباً، بالسرور لفكرة ابتعاده عن لندن وتحرره من مجتمعها هذا.

وفكر مسروراً في يخته الجديد الذي ينتظره في ساوثمبتون. ومن حسن الحظ أنه كان قد تسلمه منذ شهر. وكان يتطلع بشوق إلى أن يجربه برحلة ما، رغم أنه لم يتصور أن يحدث هذا في شهر كانون الثاني (يناير) حيث لا يمكن التنبؤ بحالة البحر رغم أنه كان من المحتمل جداً أن لا يكون الخليج في بسكاي أسوأ منه في آذار (مارس) أو نيسان (ابريل).

وحدث نفسه بأن لا أحد يمكنه التأكد من حالة الجوّ في أي وقت من السنة. وتملكه الرضى وهو يتذكّر أنه مهما

كانت حالة البحر، فلا هو ولا هاينت يشعران بدوار البحر. ذلك أنهما كانا قد سبق وسافرا معاً إلى أماكن عديدة في العالم كما أن الماركيز يعلم أنه مهما كان مقدار المشاق التي يواجهانها أثناء الرحلة، فإن هاينت لا يفقد أعصابه بل يبقى على هدوئه وسعة حيلته واستعداده الدائم لاستغلال أيّ وضع يصادفانه.

وفجأة شعر بنفسه وكأنه صبي تلميذ يقوم بعطلته المدرسية.

قال يحدث نفسه: سأذهب إلى إحدى البلاد العربية، فهناك عالم الرجال الذين هم من التعقل بحيث يحجبون نسائهم تماماً فيمنعون بذلك أيّ ارتباط مسبق.

وما لبث أن ضحك وقد أدرك أن نسيانه لهذا الوضع الذي وجد فيه نفسه على وشك أن يقع في فخ نصبته له امرأة، سيستغرق منه وقتاً طويلاً.

وكان ما يزال يفكر في آينز شنغاري عندما فتح الباب ودخلت شيكارا.

كانت قد خلعت سترتها ووضعت حول كتفيها شالاً.

كان يغطي بلوزة من الموسلين مزينة بالدانتيل ما جعلها تبدو صغيرة السن جداً وأكثر هشاشة مما كانت.

وأوشك، على أن ينصحها بأن تدعه يعيدها إلى وصيّها، فلا تقدم على هذا الهرب الجنوني.

ولكنه عاد فحدث نفسه بأن يغلق فمه ولا يشغل نفسه بشخص لا يعنيه بشيء. فهو قد قابل شيكارا بالصدفة المحضة، وهذا هو كل شيء.

وكان يتبعها إلى الغرفة خادمان يحملان منضدة وضعاها عند المدفأة، ثم قال أحدهما للماركيز: «إن الطاهي يطلب منك المعذرة، يا سيدي. فهو، لظنه أن سيادتك مستعجل، فقد جهز هذه الأنواع البسيطة حيث أنها لم تأخذ منه وقتاً طويلاً، وهو يرجو أن لا يخيب بها أملك.»

فقال الماركيز: «أظن هذا يكفي.»

ووضع الخادم الثاني إبريقاً من عصير الفاكهة الطازج. فأومأ الماركيز برأسه إلى شيكارا قائلاً: «أرجو أن تشربي شيئاً من هذا العصير، يا آنسة بارليت. فهو سيمنحك نشاطاً في رحلتك هذه.»

فأجابت: «إنني جائعة جداً، في الواقع، فقد تخاصمت مع عمي قبل العشاء مباشرة ورفضت تناول العشاء معه. وكان من الطبيعي أن لا يحاول عمي ارضائي بارسال عشاء إلى غرفتي.»

فقال: «عوضي عن ذلك الآن.» وكان يرمق راضياً الأطباق الفضية العديدة التي جهزها لهما الطاهي.

كان هناك الكثير من الطعام، في الواقع، حتى أن شيكارا احتجت عند تقديم النوع الخامس منه، بأنها لم تعد تستطيع أن تأكل المزيد.

فقال الماركيز: «إن هاينت سيجهز لك سلة مليئة بالطعام يضعها في عربتك في القطار المتوجه إلى ساوثمبتون وحيث أننا سنصل في مثل هذا الوقت المبكر، لا شك أنك ستجدين سفينة تبحر بك هذا النهار. ذلك أن ليس لدينا قائمة بمواعيد السفن المبحرة.»

فقالت شيكارا بثقة: «سأجد سفينة. وعندما أصبح في البحر، سأشعر حينذاك بأنني حقاً نجوت من عمي.»

فسألها: «هل أنت خائفة منه؟ لا يبدو عليك أنك من نوع الاشخاص الذين يخافون من أحد أو من شيء.»

فقالت بصوت خافت: «إنه في الواقع، يخيفني فهو كبير الحجم، وعندما يقول بأنه سيضربني إذا لم أتزوج من اللورد سترود، فهو يعني ذلك حقاً.»

«لا أظن أن أباك يوافقه على ذلك.»

«كلا، أبداً. إني أبي هو ألطف وأرق الرجال الذين يمكنك أن تتصورهم.»

وابتسمت بشيء من التفكير، وهي تتابع قائلة: «لكنه لسوء الحظ، دوماً ينسى وجودي عندما يثيره العثور على جثة في مدفن، كانت قد عاشت منذ ثلاثة الآف سنة، أو منحوتة حيوان فقد ساقه ورأسه أيضاً.»

فابتسم الماركيز: «لا بد أن هذا سبب لك نوعاً من خيبة الأمل، ولكن هذا السوء الحظ، ثمن على الفتاة أن تدفعه عندما يكون لها والد مشهور.»

فقالت: «لو أنني فقط أعرف ما حدث له. كتبت بشأنه إلى السيد مارييت، ولكنني أشعر بأنه لم يتمكن من استلام رسالتي، كما أن عمي هاردوين يقول إنه متأكد من أن أبي قد مات.»

«ما الذي يجعله بهذه الثقة؟»

«لأن أبي كان دوماً يكتب إلي مرة في الشهر على الأقل... لم يغفل ذلك قط... تماماً كما كان يكتب إلى أمي كل أسبوع عندما كان يتركها ليذهب في اكتشافاته.»

«أظن أن أمك ميتة.»

«نعم. لقد ماتت منذ ثلاث سنوات. ولو كانت حية لما

سمحت لعمي بأن يرغمني على الزواج من رجل... لا أحبه.»

فسألها: «ظننت أنك تكرهين الرجال. وإذا بك تأملين في أن تقعي في الغرام.»

فقالت: «إنني لن أغرم برجل. فأنا أكرههم عندما يحاولون أن يخيفوني، وأكرههم عندما يوجهون إليّ تلك النظرات الساهمة الغبية.»

وتنهدت وهي تتابع: «عندما أخبرت عمي بذلك، قال إنني غير طبيعية، ولكنني لا أدري لماذا على الشخص أن يقول إنه يحب الآخرين في الوقت الذي لا يشعر نحوهم بالحب، ثم إن الرجال يشعرونني بالتقزز... كل واحد منهم.»

فقال: «أظن أن عليّ أن أشعر بالاهانة حين تقولين هذا.»

فنظرت إليه بطريقة أدهشته إذ أدرك منها أنها لأول مرة، تنتبه إلى أنه رجل.

وأجابت: «ولكن أمرك يختلف، فأنت تكره النساء ولكن إذا حاولت أن تنظر إليّ بتلك الطريقة القذرة، أو حاولت تخويفي، فسأكرهك.»

فقال: «سأنتبه جيداً إلى أن لا أفعل أياً من الأمرين.»

فقالت بلهجة اتهام: «ها إنك تضحك مني مرة أخرى. ولكن بما أننا لن نعود إلى رؤية بعضنا عند وصولنا إلى ساوثمبتون، فأنا لا أرى سبباً يمنعني من إخبارك بالحقيقة.»

«في أحوال كهذه، أفضل الحقيقة.»

فوضعت ذراعها على المنضدة، وهي تريح يدها على ذقنها، ثم قالت وهي تنظر إليه: «إنني أتساءل عما إذا كنت

حقاً تعني ذلك. لديّ شعور بأنك اعتدت أن ترى النساء مهتمات بك. ولهذا تشعر بالملل منهن.»

فقال: «أظن ان فطنتك أصبحت مزعجة.»

فسألته: «ولكن هذا صحيح، أليس كذلك؟ يمكنني أن أرى أنك غني جداً، وأيضاً بما أن لديك لقباً فالنساء يركضن خلفك. الحقيقة أن هذا شيء يدعو إلى الذعر عندما تفكر فيه... فرغبتهن ليست في شخصك وإنما في ما تملك.»

«إنك أصغر من أن تبدي مثل هذه السخرية.»

«إنني لا أسخر، في الواقع. إنني أقول الحقيقة فقط، وقليل من الناس من يقول الحقيقة. فأبي كان يقول إنها توقعهم في الكثير من المشاكل. ولكنه كان يتحدث عن أشياء كانت حدثت منذ قرون ولم يكن هناك من يناقشه في ذلك سوى القليل من الناس أما أنا فكل شيء أقوله يسبب في الواقع جدلاً مع كل شخص حولي.»

فقال لها بجفاء: «هذا لا يدهشني إذا كنت دوماً صريحة معهم بصراحتك معي.»

فقالت معتذرة: «إنني آسفة إذا كنت أغضبتك فإن عليّ أن أكون شاكرة لك رعايتك لي، كما انني شاكرة لك جداً توصيلي إلى المحطة.»

ونظرت إلى ساعة الحائط ثم تابعت تقول: «أليس علينا أن نكون جاهزين؟»

فأجاب: «لا ضرورة للسرعة. وبصراحة، إن ما يهمني هو أنك، من دون معطف، ستصابين بالبرد.»

وقرع الجرس، فجاء إليه الخادم، فقال له الماركيز: «إسأل هاينت عما إذا كان لدينا في المنزل معطف أو دثار أو أي شيء

من هذا النوع لأجل السيدة الشابة. ربما كانت اللايدي سارة قد خلفت وراءها شيئاً في آخر مرة كانت فيها هنا.»

«سأسأل، يا سيدي.»

فسألته بفضول: «من هي اللايدي سارة؟»

فأجاب: «إنها أختي. إنها متزوجة وتسكن في الريف وعندما تأتي إلى لندن تنزل في هذا البيت وكأنه فندق. وهي غالباً ما تخلّف وراءها الكثير من حاجياتها، بعضه نحتفظ به لها إلى حين عودتها مرة أخرى، والبعض الآخر نرسله إليها في الريف مع ما يكلف ذلك من عناء ونفقات.»

فضحكت شيكارا: «دعنا نأمل أن تكون أختك قد تركت هذه المرة شيئاً مفيداً حقاً.»

وتحقق أملها فعلاً.

ذلك أن هاينت برز بعد فترة حاملاً في يده معطفاً من القطيفة السوداء مبطناً بالفرو.

«لم أجد سوى هذا، يا سيدي. إن سيادتها ترتديه حين تذهب إلى المسرح.»

فقال الماركيز: «أظن هذا هو ما نحتاج إليه.»

وأطلقت شيكارا صرخة صغيرة وهي تقول: «إنه يبدو ثميناً بحيث أخشى أن لا ترضى أختك بأن أستعيره خصوصاً إذا لم أستطع إعادته بسرعة.»

فقال: «سنجازف بمواجهة سخطها. فذلك أسهل من أن يثقل ضميري موتك من التهاب رئوي وأنت في طريقك إلى مصر.»

فألقت عليه نظرة جانبية وهي تقول: «إنني، على كل حال، شاكرة جداً هذا السخاء.»

وعندما وضعته على كتفيها، عندما خرجا من المنزل بدا لائقاً جداً عليها. وكانت عربة الماركيز المريحة التي تقودها أربعة جياد، في انتظارهما في الخارج وخلفها عربة أخرى تحمل هاينت والأمتعة.

وكانت حقيبة شيكارا معه، وبدت لعيني شيكارا غير منسجمة بجانب تلك الكومة الكبيرة من الحقائب التي تحوي أمتعة الماركيز.

وصعدت إلى العربة الأولى وتبعها الماركيز.

كان الوقت ما يزال ظلاماً، ولكن النجوم كانت تخبوا وتختبىء وقد اختفى القمر فلم يعد ينافس مصابيح الغاز في الشارع.

انطلقت الجياد بالعربة خفيفة نشيطة، واتكأت شيكارا على الوسائد المريحة خلفها بكل راحة، وهي تقول بصوت تتملكه الدهشة: «من هنا تبتدىء مغامرتي وأظن... نعم، أظن بأنني نجوت حقاً.»

الفصل الثانـي

أخذت شيكارا تفكر، وهي تجلس في عربة القطار المتأرجحة، في أنها نجحت في الهرب من عمها، ولكنها كانت تعلم أنها لن تنجو حقاً إلا بعد أن تخرج السفينة التي تنقلها إلى مصر، من ميناء ساوثمبتون.

كان هاينت قد حصل لها على عربة خاصة بها، والتي كانت في الواقع، ملاصقة لعربة الماركيز الذي كان هو أيضاً، وحده.

وكان هاينت قد زودها أيضاً بدثار يدفيء ساقيها. كما كانت قد تناولت شيئاً من الشاي والحساء الساخنين واللذين كانا في أوعية ملفوفة بقماش قطني في السلة.

كانت عربات القطار جديدة تفوق بميزاتها العديدة تلك التي كانت تستقلها أثناء أسفارها مع أبيها في أمكنة أخرى من العالم.

وشعرت بالجو بارداً جداً وذلك بالرغم من المعطف المبطن بالفرو. وكانت هناك تيارات هواء في كل ناحية من العربة.

وكانت قبل وصولهم إلى محطة القطار، قد خلعت قبعتها تغطي رأسها، بدلاً منها، بغطاء الرأس الملحق بالمعطف. وأسبغ عليها الفرو المحيط بوجهها الصغير وشعرها براءة واضحة، ولكن كان واضحاً أن الماركيز لم يكن يبدو عليه أي اهتمام بها.

www.liilas.com

وقال: «إن هاينت سيلبي كل طلباتك.» ثم تركها وتوجه نحو عربته الخاصة.

وقد حاولت شيكارا في الواقع أن تدفع لهاينت الجنيه ثمن التذكرة في الدرجة الأولى في القطار، ولكن هاينت هز رأسه قائلاً: «انك ضيفة سيادته، يا آنسة، وأنا واثق من أنه لا يقبل بأن تدفعي ثمن تذكرتك.»

فحاولت أن تصر عليه بذلك، ولكنها مالبثت أن أدركت مبلغ حماقتها. ذلك بأنها ستكون في أمس الحاجة إلى كل قرش في يدها، كما كانت تعلم أن عليها، عند وصولها إلى ساوثمبتون، أن تبيع قطعة من مجوهرات أمها، ذلك أنه من المؤكد أن أجرة الباخرة إلى الاسكندرية ستكون غالية وليس لديها سوى عدة جنيهات في كيس نقودها.

وعندما أصبحت وحدها في العربة، فتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة مجوهراتها.

لقد حدثت نفسها بأنها أقدمت على مجازفة متهورة وذلك بوضعها هذه المجوهرات في الحقيبة والتي تركتها بعد ذلك خلفها على الرصيف عندما هربت من الماركيز. ماذا لو أنها لم ترها بعد ذلك؟

لو كان حدث هذا، لتحتم عليها العودة إلى منزل عمها والذي لا شك أنه سيعاقبها لطيشها وتهورها. فتحت علبة المجوهرات، ونظرت مسرورة إلى اللآلىء والماس والياقوت والفيروز في علبها المخملية السوداء.

كانت بعض هذه المجوهرات، خصوصاً الماسات الكبيرة الحجم، قد ورثتها عن أمها، ولكن والدها كان زوجاً سخياً، وربما بسبب شعوره بالذنب لتركه زوجته وحدها، أو عندما

كان يأخذها معه في رحلات بالغة المشقة، لهذا كان يحاول أن يعوض عليها بهذه الهدايا الثمينة.

نظرت شيكارا إلى المجوهرات وهي تفكر في أن بإمكانها تقريبا أن تتذكر البلاد التي ابتيعت منها كل قطعة.

الياقوت كان أبوها قد أحضره من الهند، عندما كانت أمها قد بقيت في المنزل في انتظار ولادتها لها، وكانت منضودة، مع ماسات صغيرة ولآلىء، بطريقة أخاذة إعتاد صنعها الحرفيون المهرة في الهند أجيالاً عديدة لأميرات الهند.

أما اللآلىء فقد تذكرت شيكارا أنه كان قد اشتراها من بلاد فارس.

ولم تكن تحب اللآلىء لأنها كانت تعتقد بقول الانكليز بأنها تجلب النحس، ولكنها كانت تعشق الفيروز الذي كان يأتي من مختلف بقاع الشرق.

وكانت تفضله على غيره رغم أنه لم يكن يفوقها ثمناً ونفاسة.

وأخيراً قررت أن تبيع أحد مشابك الزينة، أمسكت بمشبك هلالي الشكل ذي ماسة زرقاء كبيرة كانت واثقة من أنها ستجلب لها ثمناً يكفيها شهوراً عديدة.

وحفاظاً على هذه المجوهرات، أخذت تثبت المشابك في داخل سترتها وتضع عقد اللآلىء حول عنقها تحت ياقة بلوزتها.

أما الأساور فقد كان اخفاؤها اكثر صعوبة إذ رأت أنها ستبدو في معصميها، لهذا صرتها مع قطع أخرى في منديل ووضعتها في جيبها وهي تفكر في أنها إذا فقدت حقيبتها بعد الآن، فستكون قد احتفظت بثروتها معها.

وما لبثت أن شعرت بالبرد، ففتحت سلتها لتأكل بعض الشطائر اللذيذة التي تحتويها، وتشرب شيئاً من الشاي الساخن.

وعندما وقف القطار في ووكين وهي أول محطة يقف فيها، جاء إليها هاينت ليسألها عما إذا كانت بحاجة إلى شيء.

فقالت له باسمة: «لديّ كل شيء، شكراً.»

«أظن الجو بالغ البرودة، يا آنسة.»

«إنني مسرورة جداً بالدثار، وبمعطف اللايدي سارة طبعاً.»

«ستشعرين بالدفء عندما تشرق الشمس، ولكننا سنسبقك إلى هذا، يا آنسة، في يخت سيادته.»

فبان الاهتمام على شيكارا، فقال هاينت موضحاً: «إن فرس البحر هو أحدث وأسرع يخت في انكلترا في الوقت الحاضر، إنني في الواقع، اتطلع بكل شوق إلى الإبحار به.»

فقالت باسمة: «أنا واثقة من تشوقك هذا.»

«حسناً، إذا كنت لا تريدين مني شيئاً، يا آنسة...»

«لا أريد شيئاً، شكراً، ولكن عندما نصل إلى ساوثمبتون، ساكون شاكرة إذا أنت استأجرت لي عربة شعبية.»

«لقد اخبرني سيادته بانك ستذهبين إلى المرفأ، ولكن إذا لم يكن هناك سفينة مبحرة، فهل لي أن أقترح عليك، يا آنسة، بأن تذهبي للمبيت في فندق رويال كمبرلاند؟ إنه الفندق الذي يبيت فيه سيادته عندما يكون عليه أن يمضي ليلة في ساوثمبتون.»

فقالت: «اشكرك. لقد كنت على وشك أن أسألك عن افضل فندق يمكنني المبيت فيه.»

ونفخ الحارس في صفارته، فأسرع هاينت يغلق باب العربة ويسرع في الممر إلى حيث عربته في الدرجة الثانية من القطار حيث كان مع الأمتعة، وحدثت شيكارا نفسها بانه رجل بالغ الإدراك. وتمنت بأن يجد أبوها رجلاً مثله ليهتم بشؤونه، ويذكره، على الأقل، بأن يراسلها.

لم تكن تصدق قناعة عمها بأن أباها ميت، رغم استغرابها الشديد لعدم اتصاله بها منذ وقت طويل.

ولكنها كانت تعلم، قبل أي انسان آخر، مبلغ ما يمكن أن يصل إليه استغراق أبيها عند أي اكتشاف جديد له في حفرياته الأثرية.

إنه عند ذلك، ينتقل بمشاعره إلى الماضي إلى حد ينسى معه، غالباً، نفسه طوال النهار دون طعام أو شراب.

ولكن، مع هذا، تسعة أشهر هي وقت طويل يمضيه دون الاتصال بها، إلا إذا كان في بقعة منعزلة تماماً من البر حيث لا يوجد مكتب بريد، وأخيراً، فكرت في أنها ستعرف كل شيء بنفسها، وستقنع أباها بأن لا يسمح بزواجها هذا الذي يريد عمها إرغامها عليه.

لقد أدركت بأن عمها هو عدو لها، وذلك منذ اللحظة الأولى التي ذهبت للإقامة معه، لقد كان يفضل النساء الهادئات اللاتي يوافقنه على كل كلمة يقولها وقد جعل زوجته، بعنفه وقسوته، لا تجرؤ على إبداء رأي يخالفه.

ولكن شيكارا، والتي كانت معتادة على الجدال مع أبيها

والمناقشة معه في مواضيع مختلفة، لم تستطع أن تكون من البلادة والعي بالشكل الذي يرغبه.

وهكذا حاول أن يسحق إرادتها ويقهرها بكل الوسائل الممكنة إلى حد انه كان يهم بضربها أحياناً.

وكانت تشعر بأنه سيسر جداً بأن ينفذ تهديده بضربها إذا هي لم تنزل عند رغبته بالزواج من اللورد ستروود.

وفي الواقع، لقد أدهشها أن يعرض اللورد ستروود ذاك، الزواج عليها. فهو كان يأتي غالباً إلى المنزل، ولكن ذلك كان لصداقته لعمها، ومع أنه كان يرافقها في الزيارات ودعاها إلى العشاء عدة مرات، فهي لم تفكر فيه لحظة واحدة كشخص مناسب للزواج.

لقد كانت مقتنعة، في الواقع، بأنه لم يكن يهتم بغير نفسه.

ولهذا، تملكها الذهول عندما دعاها عمها إلى مكتبه ليخبرها بأن اللورد ستروود قد طلب يدها للزواج وأنه وافق على ذلك.

وقالت شيكارا ذاهلة: «أتزوج اللورد ستروود؟ إنني لن أتزوجه ولو كان آخر رجل في العالم.»

حينذاك، رد عمها عليها بحدة: «بل ستتزوجينه. لأنه النوع الوحيد من الرجال الذي يمكنه أن يخضعك ويعلمك المسؤولية، والاكثر من ذلك، لديه المال واللقب اللذان يجعلان أية امرأة تزهو بهما.»

فأجابت: «أي امرأة ما عداي، فالألقاب لا تهمني، كما أنني لست راغبة في الزواج من رجل يكاد يكون بعمر أبي.»

ورأت عيني عمها تقدحان بالشرر. وسرعان ما كانا يصرخ الواحد منهما بالآخر، وكانت شيكارا تتحدى السير

هاردوين بعنف كان يخفي وراءه إحساساً حقيقياً بالخوف. لم تكن قد عاشت اكثر من عام في منزل عمها من دون أن تدرك مقدار صرامته وتصميمه على فرض طلباته ما يجعل من الصعب البالغ على الآخرين ان يقاوموا الضغط الذي يفرضه عليهم.

واكتشفت أنه، دون شك، قد اتخذ قراراً نهائياً في الأمر ليقرر بأنها يجب أن تتزوج من اللورد ستروود.

وتساءلت عما سيفعله عندما يخبرونه بأنها تركت المنزل وأنهم وجدوا حبلاً متدليا من نافذة غرفتها، وإذ شعرت بالخوف من أن يمنعها في آخر لحظة، من ترك البلاد، أخذت تنظر إلى الساعة التي حملتها معها في حقيبتها، ليس مرة واحدة بل اكثر من عشر مرات أثناء الساعة التي تلت.

وبدا وكأن القطار أخذ يبطىء من سرعته أثناء اقترابه من ساوثمبتون، وعندما نظرت شيكارا من النافذة، رأت أن السبب هو تكاثف الضباب، ما جعل من الصعب رؤية أبعد من ياردات قليلة.

في البداية، شعرت بالذعر خوفاً من التأخر. ولكنها ما لبثت أن أدركت أنه إذا كان عمها قد لحق بها، فسيتأخر هو أيضاً كما تأخر هي الآن. وأخيراً شعرت بالإرتياح وهي ترى القطار يدخل المحطة رغم تأخره عن الموعد ساعة كاملة.

وجاء هاينت ليساعدها في النزول مصطحباً معه حمالاً لنقل حقيبتها، وهو يقول باحترام: «إذا سمحت بالذهاب إلى المدخل، يا آنسة، لأذهب أنا وأرى ما يطلبه مني سيادة الماركيز ثم أعود إليك.»

فأجابته: «اشكرك.»

وعندما نزلت إلى الرصيف وجدت أن الماركيز قد سبقها إليه. وكان يبدو بالغ الأناقة بمعطف السفر السميك الذي يرتديه، وقبعته المائلة فوق شعره، وذلك بطريقة تجدها النساء مميزة، ولكن شيكارا كانت تفكر في متاعبها فقط.

وعندما وصلت إلى جانبه، لاحظت تجهماً خفيفاً في وجهه وهو ينظر إليها، ويقول: «لا اظن هناك أمل في أن تغيري رأيك وتعودي إلى لندن؟»

فأجابت: «كلا مطلقاً.»

«على أي حال، فأنا أتمنى لك رحلة سعيدة، يا آنسة بارليت، وأرجو أن تجدي، عندما تصلين إلى مصر، أباك بخير وعافية.»

فأجابت: «اشكرك جداً، كما إنني شاكرة لك إيصالي إلى هنا.»

فقال: «لقد طلبت من هاينت أن يحضر إليك عربة أجرة حالاً، وبعد ذلك يعود فيحضر حقائبي.» وألقى نظرة رأت فيها شيكارا شيئاً من الإستخفاف، على حقيبتها التي كان ينقلها الحمال.

قالت شيكارا: «مرة أخرى، أقدم لك شكري الجزيل.»

فرفع لها قبعته بينما كانت هي تبتعد إلى حيث كان هاينت في مدخل المحطة بجانب عربة تنتظرها، وقال لها: «لقد طلبت من السائق أن يأخذك إلى فندق رويال كمبرلاند، يا آنسة.» وعندما ساعدها على صعود العربة، حاولت أن تفتح كيس نقودها، فقال: «سأدفع أنا أجرة الحمال، يا آنسة، وأرجو لك رحلة سعيدة.»

فابتسمت للرجل الكفوء الصغير الحجم، وهي تقول:

«شكراً، يا هاينت.» وعندما تحركت بها العربة مبتعدة، شعرت وكأنها تقريباً، تفارق صديقاً.

وحدثت نفسها، ها إنني الآن قد أصبحت بمفردي. وما أن خرجا من المحطة، حتى نقرت الحاجز بينها وبين السائق لتنبهه إلى أن يذهب بها أولاً إلى أحسن متجر للمجوهرات في المدينة.

* * *

توجه الماركيز بالعربة إلى الميناء، تاركاً هاينت ليتبعه بالأمتعة.

كانت تعليماته لقبطان اليخت بأن يبحر في أي وقت يطلب منه ذلك، وكان هذا أحد الشروط التي يتضمنها عقد العمل بينهما.

وعندما وقعت عيناه الآن على يخته فرس البحر تملكه السرور وهو يراه متأهباً للسير حالما ينقشع الضباب.

وكان هذا مايزال بالغ الكثافة حول الميناء بالذات، وبعد أن صعد الماركيز إلى سطح المركب وقابل القبطان حيث أخبره بخطته، عاد فنزل عائداً إلى المدينة ليشتري كتباً ومجلات لا بد سيكون بحاجة إليها أثناء السفر، حيث أن اليخت كان جديداً، لم يجد وقتاً ينشىء فيه مكتبة حسنة.

وكان مولعاً بالقراءة ولكنه في لندن، وفي الريف أيضاً، لم يكن يجد وقتاً كافياً لذلك. وهكذا كانت الرحلات البحرية هي الوقت الوحيد الذي بإمكانه أن يشبع فيه تلك الرغبة، وسره أن يجد عدداً من الكتب التي كان يتوق إلى اقتنائها معروضة للبيع في مكتبة صغيرة.

وعند خروجه من المكتبة، لاحظ أن الضباب قد أصبح أشد كثافة مما كان. وفكر بأن ما يحتاجونه هو الريح التي تذهب بالضباب.

عند ذلك، تذكر، بخبرته في الأسفار البحرية، أنه من المحتمل أن يتبدد الضباب بفعل ابتداء المد.

وعادت عربة الأجرة التي يستقلها، ببطء إلى الميناء، وبينما نقلت مشترياته إلى اليخت، كان هو يتطلع إلى اليخت عن كثب.

كانت شركة الخطوط الشرقية قد أنزلت، في بداية هذه السنة، الباخرة همالايا والتي بدت كل سفينة قبلها قديمة الطراز.

وكان الماركيز قد فكر منذ سنتين بإنشاء هذا اليخت بنفس الطريقة التي انشئت بها تلك الباخرة، والتي كان قد رآها تنفذ بواسطة شركة خطوط إينمات الأوروبية.

أوائل صناعة هذه البواخر كانت حمولتها أقل من ألفي طن ومازالت تحتفظ بالأشرعة.

وسرعان ما اتبع الألمان والفرنسيون هذا المثال، ولكن الانكليز المعروف عنهم الرغبة في الحفاظ على الطرق التقليدية، اضطروا في النهاية إلى الالتحاق بهذا الخط فأنتجوا همالايا والتي كانت بحمولتها البالغة ٣٤٣٨ طن أكبر باخرة من هذا النوع في العالم.

وكان الماركيز قد أمر بإنشاء يخته في نفس المكان الذي انتج هذه البواخر.

كان كبيراً جداً بالنسبة ليخت خاص، ولكنه اعتبره مستحقاً ما أنفقه عليه، وتوقع أنه، عندما يأخذه إلى جزيرة وايت للاشتراك في اسبوع سباق اليخوت، سيحدث ثورة،

ولكنه، في الواقع، لم يكن ليهتم بأن يترك تأثيراً في نفوس اصدقائه ومنافسيه، بقدر ما كان يهمه أن تتوفر له فيه كافة أسباب الراحة أثناء السفر.

كان يحب البحر، وكان قد قام برحلات بحرية متعددة يجدها الكثير من أبناء طبقته شاقة مجهدة، وفكر باسماً بأنه واثق من شيء واحد، وهو أنه، لا هو ولا هاينت، سيجدان أية مشقة أو إرهاق في هذا اليخت، والذي يبدو بالغ الأناقة والجمال بلونه الأبيض المتألق، وساريتيه الاحتياطيتين، وذلك العلم الذي يخفق في مؤخرته.

صعد الماركيز إلى يخته ممتلئاً بالرضى، شاعراً بالسرور لدى أول نظرة ألقاها على الصالون.

لقد كان اختار الألوان والأثاث والصور بنفس الاهتمام بالتفاصيل الذي يوليه لمنزله وجياده، وسكب له هاينت كوباً من العصير وهو يبتسم بينما كان هو جالساً في مقعد مريح وهو يقول: «ستكون رحلة رائعة، يا هاينت، وأظن هذا اليخت سيعثر لنا على عالم جديد نغزوه.»

فقال هاينت: «إنه اكبر مما ظننت، يا سيدي ويبدو أنك فكرت في كل التفاصيل.»

«أرجو ذلك، فأنا في الحقيقة، قد أوليته الكثير من التفكير الجاد.»

ونظر أثناء كلامه إلى إحدى الكوات وهو يسأله: «متى يرى القبطان أن يبدأ بالإبحار؟»

«عندما رأيته آخر مرة، يا سيدي، قال لي إنه يأمل في أن يشرع في الرحلة حالما يبدأ الضباب بالانقشاع عند رجوع المد.»

وكان هذا ما كان الماركيز قد سبق وفكر فيه هو نفسه، وسره أن يصدق تخمينه ذاك.

«سأذهب لأتحدث مع القبطان.» وكانا، هو وهاينت يعلمان أن هذا ليس سوى عذر ليلقي نظرة أخرى على اليخت. لقد كان رآه حين تعويمه، ولكن تأثيثه، حينذاك، لم يكن مكتملاً وكذلك اجزاء اليخت العليا.

ذلك انه مهما كان من جودة رسم التخطيط، أو تنفيذ خطة الانشاء، فذلك لا يشعر المرء بنفس الرضى الذي يتملكه حين ينتهي الصنع بالكامل.

توجه الماركيز إلى الدفة حيث لم يتحدث فقط إلى القبطان بل تعرف أيضاً إلى بعض أفراد طاقم الملاحين، كان عدد أفراد الطاقم خمسة وعشرين، وكانوا يقيمون في أماكن هي افضل كثيراً واكثر راحة مما تعودوه في أي سفينة أخرى سبق وعملوا عليها.

سأل الماركيز: «متى ستبدأ الرحلة، يا حضرة القبطان؟»

«إنني انتظر فقط احضار بعض المؤن إلى سطح اليخت يا سيدي، وبعد ذلك سيكون في امكاننا المجازفة بالخروج من الميناء ببطء. إني أعرف هذا الجزء من العالم كما اعرف ظهر يدي، وأنا مستعد للمجازفة بالتحرك، إذا شئت سيادتك.»

فأجاب الماركيز: «بالنسبة إليّ، كلما أسرعنا كان ذلك أفضل، ولكن لا تدعه ينطح صخرة، أيها القبطان.»

وكانت هذه مزحة بالطبع، فضحك القبطان قبل أن يجيب:

«إن زهوي به لا يسمح لي بذلك، يا سيدي.»

وعاد الماركيز إلى الصالون حيث ناول معطفه لهاينت، ثم جلس يطالع الصحف. ولم يستطع منع نفسه

من الشعور بالإثارة حين سمع صوت المحرك ينطلق، ليشرع اليخت، بعد ذلك، في الإنسياب ببطء، خارجاً من الميناء.

ألقى الصحف من يده، ثم نهض عائداً إلى برج القيادة.

وفي الوقت الذي غادر فيه اليخت الميناء، كان الضباب قد ابتدأ ينقشع لتظهر شمس شهر كانون الثاني (يناير) شديدة الشحوب وهي تتلصص من خلال السحب.

وأمضى الماركيز بقية النهار ما بين البرج والصالون حيث قرأ الصحف اليومية أولاً، ثم أحد الكتب التي كان ابتاعها من ساوثمبتون.

وعلى كل حال، لم يستطع منع ذهنه من التفكير في ما حدث له في الليلة السابقة، متسائلاً عما عسى أن يكون اللورد شنغاري قد فكر فيه عندما قام بزيارة منزله في غروسفينور ليجد فريسته قد اختفت.

وتملك الماركيز السرور وهو يتصور الكآبة التي سادت ملامح شنغاري والغضب الذي لا بد قد تملكه وهو يرى آماله في تعويض ضخم يتلاشى كالحلم، ولكن الغيظ مازال يتملكه لخداع آينز له. كان عليه أن يعترف لنفسه بكل صراحة بأنه صدق ادعاءها بالصداقة، بينما كانت طوال الوقت تضع الخطط مع زوجها ضده.

وكان هذا شيئاً لا يمكن للماركيز أن يصفح عنه أو ينساه.

ولكنه كان يعلم بأنه، رغم أن آينز شنغاري قد جرحت كبرياءه وانقضت من خيلائه وغروره، فسيمضي وقت طويل قبل أن ينساها.

أما بالنسبة إلى شيكارا، فإن أفكاره لم تتجه إليها. إنه قد بذل كل جهده في سبيل تلك الفتاة، فقد أحضرها إلى ساوثمبتون، ولا بد أنها الآن، مثله هو، في سفينة تشق بها البحار، متجهة إلى مصر بكل ثقة وكفاءة ذاتية يفقدها الكثير من الأنوثة، وأخذ يفكر متأملاً في هذه الفتاة العصرية التي تسافر وحدها في أنحاء العالم مستغنية عن عون رجل يحميها.

وتتابعت أفكاره، فهي، دون شك، ستتحول إلى امرأة قوية مثل الرجال ذات يوم، وسينتهي بها الأمر إلى ذرع الصحراء في رحلة استكشافية وذلك على ظهر جمل.

ضحك وهو يتذكرها، وتابع تفكيره بأنه كان عليه أن يستعلم عن السفينة التي أبحرت عليها، وأن يرسل هاينت لحجز قمرة لها.

ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأن هذا ليس من شأنه، وأن آخر ما يريده هو أن يقترن اسمه باسم وارثة غنية لا بد سيحدث اختفاؤها فضيحة في المجتمع، قائلاً لنفسه، لقد احترقت اصابعي مرة، ولا أريد إعادتها إلى النار مرة أخرى.

وبعد الظهر، أخذ غفوة قصيرة توجه بعدها إلى قمرته الفسيحة الباذخة وذلك ليغير ملابسه استعداداً للعشاء.

كان هاينت قد تدبر كل شيء حسب ذوقه، فقد كان هناك حمام ملحق بقمرته، وهذا غير موجود في اكثر اليخوت الخاصة.

اغتسل الماركيز وارتدى ثيابه بنفس الأناقة التي كان سيتخذها لو أنه كان سيتعشى في النادي أو بين

مجموعة من اصدقائه، ثم جلس يتناول عشاءً فاخراً قام بإعداده طاهٍ احسن اختياره بنفس العناية التي اختار بها قبطان يخته.

كان الماركيز يستمتع بالطعام عندما يكون شهي الصنع، وفكر في أنه لم يتذوق من قبل ما هو أشهى من هذا الطبق الذي قدم له على هذه المائدة التي وضع عليها العديد من الصحاف التي تذوق الماركيز اكثرها.

وكان الخادمان اللذان وقفا في الغرفة لتنفيذ طلباته، في منتهى اليقظة في تأدية واجبهما، وعندما انهى طعامه، فكر في أنه كان حكيماً حقاً في اختياره رجالاً ذوي خبرة في الخدمة إما على ظهر سفن، وإما في يخوت أمثاله من المتأنقين.

رفعت أطباق الطعام، وكان الماركيز قد عاد إلى كتابه الذي كان يقرأ فيه عند الصباح، عندما دخل هاينت الصالون.

«المعذرة، يا سيدي، ولكن، أظن أن عليّ أن أقول لك شيئاً.»

ورأى الإنزعاج على وجه هاينت فأدهشه ذلك في خادمه الذي عرف فيه الهدوء على الدوام.

وعاد الخادم يقول: «إذا أنت صحبتني، يا سيدي، سأريك ما وجدت.»

فنهض الماركيز وقد تملكه الفضول، وسار مع هاينت الذي قاده من الصالون إلى حيث قمرته هو، وقبل أن يصل إليها، فتح باباً يعرف الماركيز أنه يؤدي إلى قمرة الضيوف.

كانت هذه قمرة جميلة تحتوي على سرير نحاسي في الوسط بينما كانت بقية الأثاث مصنوعة من خشب الورد الثمين.

بدت الغرفة خالية، فتساءل الماركيز عما يريده هاينت أن يرى، وإذا بالخادم ينحني ثم يرفع الغطاء الذي يحيط بالسرير.

ثم يقول: «انظر، يا سيدي.»

فنظر الماركيز، وتملكه الذهول وهو يرى شخصاً تحت السرير مستغرقاً في النوم، ولم يكن به حاجة إلى الإقتراب من ذلك الشخص.

فقد عرف ذلك الشعر الأشقر المنتشر على الوسادة التي لا بد أن شيكارا قد احضرتها عن السرير، والمعطف المخملي الأسود المبطن بالفرو والذي كانت قد غطت نفسها به.

كانت عيناها مغمضتين، وبجانبها تحت السرير، كانت حقيبتها التي تذكرها الماركيز، وكذلك حقيبة يدها.

حدق فيها لحظة، ثم قال بحدة: «أيقظ الآنسة بارليت يا هاينت، ثم أرسلها إليّ في الصالون.»

ولم ينتظر جواباً، بل سار عائداً إلى الصالون وغضبه يتصاعد مع كل خطوة يخطوها.

كيف تجرأت هذه الفتاة على التصرف بهذا الشكل؟ كيف تجرأت على القدوم إلى اليخت واقحام نفسها عليه؟

انه لم يشجعها على تصرف كهذا، ومع ذلك يراها ترهقه بعبئها.

ورأى أن الشيء الوحيد الذي عليه أن يقوم به، هو أن يحول اتجاه اليخت عن مساره المطلوب ثم ينزل شيكارا على شاطىء بلايموت أو ربما شيربورغ.

وحدث نفسه وقد أثاره الغضب: «يا لها من وقاحة... يا لها من وقاحة وقلة حياء.»

وكان وجهه متجهماً من الغضب عندما فتح باب الصالون بعد دقائق ودخلت منه شيكارا.

كانت ترتدي تلك السترة المقفولة التي كانت ترتديها عندما شاهدها لأول مرة.

كما كانت عيناها واسعتين قد بدا فيهما التوجس ولكن رأسها كان عالياً وهي تسير متجهة نحو الماركيز الذي لم يحاول النهوض لها، بل بقي جالساً ينتظر إلى أن أصبحت أمامه، وعندما لم تتكلم، قال لها بحدة: «حسناً، ما الذي لديك لتقوليه عن نفسك؟»

فأجابت: «إني... آسفة... ولكنني كنت آمل أن... لا تعثر عليّ بهذه... السرعة.»

فسألها: «وما دخل هذا في الأمر؟ فنحن كنا سنعثر عليك عاجلاً أم آجلاً، ودعيني أقول لك إني اعتبر عملك هذا منتهى الوقاحة والتطفل وانتهاك للحرمات منك إذ تصعدين إلى يختي من دون دعوة.»

فعادت تقول: «أنا... أنا آسفة.»

وصدرت عن المركب هزة جعلتها تمد يديها تتمسك بالمنضدة.

«هل... هل يمكنني الجلوس؟»

فأجاب بغيظ: «أظن ذلك وما دام يبدو أنك تتصرفين كما يحلو لك، لا اظنك تهتمين لأنني لك بما ترغبين عمله.»

فقالت: «لقد... كنت مرغمة على الحضور. لم أجد سفينة

مبحرة إلى البحر الأبيض المتوسط إلا بعد غد. ولكن... قد يعثر عليّ عمي في هذه الأثناء...»

فقال بحدة: «هذا ليس من شأني.»

فقالت: «لقد... ذهبت إلى الفندق... ولكنهم احتجوا بأن الفندق مزدحم. واظنهم لم يقبلوا بي لأنني بمفردي.»

فسكت الماركيز وقد أدرك أنه لم يفكر في هذا من قبل.

حدث نفسه بأنه غفل، في الواقع، عن تنبيه شيكارا إلى أن ليس هناك فندقاً محترماً يقبل باستضافة فتاة صغيرة بمفردها.

ذلك أنها بدت له مليئة بالثقة بالنفس إلى حد لم يخطر بباله بأنها ستواجه وضعاً من هذا النوع.

ومرت لحظة كاد يلوم فيها نفسه لعدم تفكيره في احتمال عدم عثورها على غرفة تبيت فيها، ولكن تفكيره في إقحامها نفسها عليه، أعاد الغضب إلى عينيه.

«قلت لك ان عليك أن تعودي إلى منزلك وتكفي عن هذه التصرفات الحمقاء، ولو كنت حريصة على ترك إنكلترا، لأخذت الباخرة إلى فرنسا.»

وشعر بأنه هزمها بهذه الفكرة، لولا أن شيكارا قالت بمذلة: «لم يكن لدي... نقود كافية...»

فقال مزمجراً: «اتريدين أن تقولي انك قمت بهذا الهرب الجنوني دون تفكير في ما سيكلفك؟»

فأجابت: «كلا، كلا بالطبع، ولكن، حيث لم يكن في يدي نقود كافية، ظننت أن من السهل أن أبيع مجوهرات أمي. ولكنني عندما ذهبت إلى متاجر المجوهرات، رفضوا ابتياعها مني. ربما ظنوا... أنني سرقتها.»

فنهض الماركيز واقفاً، وأخذ يذرع الغرفة وكأنه، بذلك، سيتمكن من السيطرة على ما يشعر به من ضيق. ثم انفجر يقول: «لم أسمع قط من قبل بقصة متهاوية كهذه. لماذا تتوقعين مني إنقاذك من مثل هذا المأزق الذي ورطت نفسك فيه؟ أليس هذا ما تطلبينه مني؟»

وسادت لحظة صمت قالت هي بعدها: «كنت... كان الأمر مخيفاً نوعاً ما... فلم أدر ما عليّ... أن أفعل، ثم إن رجلاً... إعترضني...»

فأجاب: «لقد سبق واخبرتك أن هذا أحد الأخطار التي تتعرض لها كل فتاة تجول في الشوارع بمفردها.»

فقالت: «ولهذا... فكرت في أن الطريقة الوحيدة التي اكون فيها... بأمان، هي أن آتي... معك. إنني لن أسبب أي إزعاج... سأتوارى عن الأنظار... حتى انك لن تشعر بأنني... على متن اليخت.»

فسألها: «وهل هذا معقول؟ على كل حال، ليس في نيتي أن أنقل معي ضيفاً غير مرغوب فيه، المسألة هي ما إذا كنت أنزلك في بلايموث أو تشيربورغ.»

فلم تجب، وبعد لحظة قال بحدة: «حسناً، ما هو جوابك؟»

فشبكت شيكارا يديها ببعضهما ونظرت إليه بعينين واسعتين ممتلئتين بالتوسل: «أرجوك... خذني إلى مكان أبعد قليلاً، إذا أنت انزلتني في... تشيربورغ... سيكون علي أن أذهب إلى مارسيليا براً، لقد سبق وقمت بهذه الرحلة من قبل مع أبي، وكانت رحلة... شاقة جداً... وأظنني سأخاف القيام بها بمفردي.»

«خوفك هذا سيكون شيئاً حسناً جداً. فقد يدفعك إلى التعقل ومن ثم العودة إلى عمك.»

فسألته: «ثم أتزوج اللورد سترود؟ أبداً.»

«لا يمكنك أن تهيمي في العالم دون نقود، وكما سبق واخبرتك من قبل، ليس لديك فكرة عن الأخطار التي قد تقعين فيها.»

فقالت: «لقد ابتدأت... أدركها، كان الرجل الذي... اعترضني في الشارع... مخيفاً... هربت، ولكنني خفت أن... يلحق بي.»

فهتف الماركيز: «يا لحظي... هل عانى رجل قط من النساء ما أعانيه؟ ما الذي يجعلني أتحمل كل هذه الألاعيب السخيفة؟ إنني لست مسؤولاً عنك. فأنا لم أرك في حياتي قبل الليلة الماضية. وعندما وصلنا إلى ساوثمبتون كنت أتوقع، وأرجو، أن لا أراك بعد ذلك.»

فردت عليه بحدة وكأن الكلمات كانت تخرج من بين شفتيها برغمها: «وكذلك أنا لم اكن أريد أن أراك مرة أخرى، فإذا كنت تظنني ألاحقك لجاذبيتك فانت مخطىء جداً، لم اختبىء في يختك إلا لأنني كنت خائفة من أن يكون عمي يبحث عني، وليس لأي سبب آخر، وإذا كنت تخاف على نفسك مني، فلا يتملكك الغرور بأنني اهدف إلى شيء من ناحيتك.»

كانت تتحدث بخشونة جعلت الماركيز ينظر إليها بدهشة، وإذ ذكرته مرة أخرى بصغير النمر في حديقة الحيوانات، ضحك وقال: «حسناً، لقد كنا صريحين مع بعضنا على الأقل.» وأدهشه، وهو يقول ذلك، أن يجد غضبه قد تبدد، عاد

يجلس على كرسيه وهو يقول: «علينا أن نناقش هذا الأمر بتعقل، وحيث أنني أعلم انك لم تتناولي العشاء، وأظنك لم تتناولي الغداء أيضاً، فسأطلب من الخادم أن يحضر إليك بعض الطعام.»

فأجابته: «بعد كل ما قلته لي، لا بد أنني سأغص بالطعام.»

فأجاب بجفاء: «أشك بذلك.» وقرع الجرس يستدعي الخادم.

فقالت: «لقد أصبحت لطيفاً معي ما جعلني أرتاب في أنك تنوي إلقائي في البحر.»

فلم يستطع أن يغالب الضحك وهو يقول: «هذه فكرة حسنة بكل تأكيد، وهو حل لم يخطر لي ببال.»

فقالت شيكارا: «دوماً كنت أرى أن البحر هو أسهل طريقة لإلقاء الشخص ما لا يريده، فيه.»

فسألها: «اتستطيعين السباحة؟»

فأومأت برأسها.

فقال: «كان يجب أن أفكر في هذا، إذ يمكنك أن تسبحي عائدة إلى الشاطىء، أو ربما تعتلين ظهر فرس البحر، لتشهدي ضدي.»

وقبل أن تجيب شيكارا، كان الخادم يقف عند الباب.

قال له الماركيز: «أطلب من الطاهي أن يجهز عشاء لسيدة شابة جائعة للغاية. واخبر القبطان برغبتي في الحديث إليه.»

وعندما قال هذا، رأى ملامح شيكارا تتغير، فتردد لحظة ثم عاد يقول للخادم: «لا تزعج القبطان. سأراه بنفسي فيما بعد.»

وعندما أغلق الخادم الباب خلفه، تقدمت شيكارا نحو الماركيز قائلة: «أرجوك أن تأخذني إلى مكان أبعد من تشيربورغ، أقسم لك بأن... لا أزعجك أبداً.»

فانفجر قائلاً: «لا تزعجينني؟ ولكنني لم أر منك سوى الازعاج منذ اللحظة التي رأيتك فيها.»

فقالت: «أعلم ذلك، ولكن الذنب ليس ذنبي... إنه ليس ذنبي في الحقيقة.»

فقال: «هذا رأيك أنت. ولكن عليك أن تدركي بوضوح أنني لا أنوي الذهاب إلى الاسكندرية.»

فقالت: «يمكنك أن تنزلني على شاطىء جبل طارق. فقد سبق وذهبت إلى هناك مرتين مع أبي، آخر مرة عندما كنت في العاشرة، ولكنني لا اظن ان المدينة تغيرت كثيراً.»

وتبادر إلى ذهن الماركيز ان الاوضاع كانت آمنة في جبل طارق عندما كانت في العاشرة من عمرها وذلك لوجود الحاميات العسكرية هناك، الأمر غير المتحقق وهي في الثامنة عشرة.

ولكنه، على كل حال، لم يقل سوى: «سأفكر في الأمر.»

وساد الصمت لحظة قالت شيكارا بعدها: «إنك لم تعد... غاضباً كما كنت، أليس كذلك؟»

فأجاب: «لقد كنت في غاية الغضب عندما رأيتك. وفي الواقع، لو لم اكن إنساناً متحضراً ومتديناً أيضاً، لألقيت بك في البحر كما تستحقين.»

فضحكت، ولأول مرة لاحظ غمازة على خدها. ثم قالت: «يبدو أنك رجل من النوع الذي يفكر أولاً، ثم يتصرف بعد ذلك، أما أنا فعلى العكس. اتصرف أولاً، ثم أفكر بعد ذلك.»

فقال ساخراً: «وهذا ما رأيته.»

فقالت: «أرجو أن لا تظن أنني ندمت على فراري. فأنا مسرورة... مسرورة جداً لخلاصي من عمي هاردوين... ومهما حدث لي، ومهما كانت صعوبته... فلن أعود...»

فقال: «أظنك تدركين أن عليك أن ترسلي إليه خبراً عندما تنفذ نقودك، وحيث أن ثروتك بين يديه، فهو سيرفض أن يرسل إليك قرشاً إذا لم تعودي إليه.»

فقالت: «إن مجوهراتي ستدوم شهوراً كثيرة، ولكن إذا لم أجد أبي في الوقت المناسب، فسأشتغل واحصل بنفسي على نقود.»

فقال ساخراً: «يبدو أن ذلك طموح كبير، وأي عمل تظنين بإمكانك القيام به؟»

فأجابت: «عند وصولي إلى مصر، سأجد وظيفة أقوم بها، فأنا أولاً، يمكنني التحدث بالعربية.»

«أصحيح هذا؟»

«طبعاً، لقد كنت دوماً أساعد أبي في كتابة رسائله إلى المسؤولين، إنني أعرف عدداً كبيراً من اللغات، وبعضها لا أجيدها تماماً، كالتركية التي أجدها بالغة الصعوبة، ولكن الفارسية كانت سهلة، أما العربية، فقد أمكنني التحدث بها منذ طفولتي.»

فقال: «هذا يزيد من دهشتي.»

فردت عليه بحدة: «إن كونك تكره النساء لا يعني أننا جميعاً حمقاوات فارغات العقل، ربما النساء اللاتي عرفتهن كن على غير ما ينبغي.»

فرأى الماركيز كلامها معقولاً، فقال: «ماذا تعنين بقولك، على غير ما ينبغي؟»

فأجابت بلهجة لاذعة: «اعني به النساء اللواتي يلاحقن الرجال، وذلك بإطرائهم وتملقهم.»

فضحك.

وأثناء تناولها الطعام، وجد نفسه يضحك عدة مرات للأشياء التي كانت تقولها أو تعلّق بها.

قد تكون مزعجة، وكان واثقاً من هذا بالنسبة إليه، ولكن لا شك أن لديها طريقة مختلفة في النظر إلى الحياة والتعبير عن أفكارها وذلك بشكل لم يعهده في امرأة من قبل.

لقد كان معتاداً على النساء اللواتي لا يعرفن سوى الغرور وبشكل غير مباشر، أثناء تحدثهن عن أنفسهن.

كان يشعر بالتحدي وتجدد الحيوية وهو مع هذه الفتاة الشابة التي قالت له بكل صراحة انها تكرهه كرجل، ومع ذلك، تأتمنه على نفسها، كما يبدو، دون أي تردد.

وعندما رفعت أطباق الطعام، جلس الماركيز متكئاً إلى الخلف بكل راحة، وهو يقول: «والآن، علينا أن نستقر على رأي بالنسبة إليك. إذا أنا وافقت على اخذك إلى مكان أبعد قليلاً، هل تعدينني بأنك لن تغضبي عندما انزلك إلى الشاطىء في النهاية.»

فقالت: «عليك أن تعلم أن وعد المرأة ليس أبداً كوعد الرجل.»

فسألها: «ماذا تعنين بذلك؟»

فأجابت: «غير مطلوب من النساء التصرف كالرجال، وذلك لأسباب، أولها هو أنه ليس عليهن سداد ديونهن خشية نبذهن في النادي، ثانياً، انهن يستمعن من خلال ثقوب الأقفال وفتح رسائل الآخرين دون أن يتعرضن إلى اطلاق الرصاص عليهن

أو إلى أي وسيلة يقوم بها الرجال تجاه بعضهم البعض.»

ووجد الماركيز نفسه يعود إلى الضحك.

«إذا كنت إذن لا تعترفين بصحة قيمي، فما هي قيمك أنت؟»

ففكرت شيكارا لحظة، ثم أجابت: «أنا لا أتعمد إيذاء أحد لم يؤذني، لا أقول شيئاً في غياب أحد لا أقوله في وجهه، ولا أكذب أبداً إلا إذا كنت مضطرة إلى ذلك.»

«بماذا تقسمين إذن؟»

فألقت عليه نظرة جانبية، ثم قالت: «أضع يدي على قلبي وأطلب الموت إذا اخلفت الوعد.»

فقال: «لا أرى تلك طريقة جادة.»

فقالت: «بل هي جادة تماماً، لأنني لا أريد الموت، ليس الآن، فهناك أشياء كثيرة أحب القيام بها في هذا العالم.»

«حسناً إذن، ضعي يدك على قلبك واطلبي الموت إذا أنت غضبت حين أنزلك إلى الشاطىء.»

فمالت شيكارا برأسها إلى جانب، وهي تقول: «أظن سيكون في هذا شيء من الالتباس. إفرض انك أردت أن تنزلني في جزيرة نائية أو منطقة مهجورة في الباسيفيكي حيث لا يوجد سوى الأفاعي والسراطانات المتوحشة.»

فأجاب: «إنها حقاً فكرة أخرى لم تخطر لي ببال، إذ ربما بعد سنة أو نحوها في مكان كهذا سترحبين، بعد ذلك، بأي شخص مهما كان.»

فقالت: «قد يكون ذلك صحيحاً، ولكنك، هل فكرت قط كيف بإمكانك العيش في عالم دون نساء؟ حيث عليك ان تواجه واقع عدم وجود معجب بك ما عدا نفسك؟»

وبدت في عينيها نظرة خبيثة جعلته يقول بسرعة: «إذا تحدثت معي بهذا الشكل، فسأسبق عمك إلى ضربك.»

«لا أظنك تقوم بشيء عنيف كهذا، فأنت ستفكر فيه أولاً ثم تقرر بأنه شيء لا يليق بمركزك، أو قد يُفسد معطفك البالغ الأناقة المتقن التفصيل.»

فقال: «أظن حيث انك سهرت طوال الليلة الماضية، كلما أسرعت بالذهاب إلى سريرك، كان ذلك أفضل، ودعيني انكرك، يا آنسة بارليت بقولك انك ستبتعدين عن طريقي قدر الإمكان ولا تسببين لي أي إزعاج في هذه الرحلة.»

وسكت برهة، ثم اضاف بحزم: «سنتناول وجبات الطعام معاً، أما بقية النهار فأرجو أن تتركيني وشأني. إن لدي كثيراً من الأشياء أود القيام بها. وربما يفيدك جداً أن تفكري ملياً في الخطوة الخطيرة جداً التي تقومين بها.»

فأجابت: «ليس لدي بالطبع إلا الموافقة على ما تقول، ما عدا ما يتعلق بالتفكير ملياً، وإذا لم تعرني بعض كتبك، فلن يكون لدي ما افعله سوى التفكير بنفسي، وهذا سيكون مملاً للغاية.»

فقال: «خذي منها ما شئت، ولا شك ان هاينت سيبدل الكتاب الذي تكونين قد أنهيته، بكتاب آخر، هذا إذا لم تنته مكتبتنا بسرعة.»

فسارت شيكارا نحو المنضدة التي أشار إليها، والتي كان قد وضع عليها الكتب التي كان ابتاعها في ساوثمبتون قبل صعوده إلى اليخت، نظرت إليها، ثم اختارت واحداً، ثم آخر، بينما كان هو ينظر إليها.

قالت: «إنها جميعاً عن الحرب، تقريباً. أظن الرجال

يحبون القراءة عن القتال عندما لا يكونون في الواقع، قائمين بذلك فعلاً.»

فسألها: «ما الذي كنت تتوقعينه... قصص عاطفية؟»

فأجابت: «كلا، لم اتوقع ذلك، فهي وجهة نظر بكل تأكيد.»

وأمسكت بكتاب رآه الماركيز مملاً نوعاً ما، وهو يتعلق بطموحات روسيا في افغانستان، فسألها بدهشة: «اتظنين انك ستستمتعين بقراءة هذا الكتاب؟»

فأجابت بلهجة جادة: «افغانستان هي مكان طالما تمنيت زيارته. أظن بإمكاني أن أقنع أبي بالذهاب إلى هناك، عندما أجده... هذا إذا لم يكن... ميتاً.»

ولمس الماركيز في صوتها خوفاً حقيقياً كامناً في أعماقها. وقبل أن يفكر في شيء يقوله لها قد يبعث الطمأنينة والأمل في نفسها، اتجهت نحو الباب، وعندما وصلت إليه استدارت قائلة: «إنني أضع يدي على قلبي وأطلب الموت لو أخلفت وعدي بعدم إزعاجك، قدر إمكاني. حاول أن لا تفكر بي. فكراهية المرء لآخر تسبب دوماً عسراً في الهضم.»

وتوارت مغلقة الباب خلفها قبل أن يتمكن الماركيز من التفكير في رد ملائم، وهكذا وجد نفسه يضحك مرة أخرى.

الفصل الثالث

في الثلاثة أيام الأولى، تمسكت شيكارا بالترتيب الذي وضعاه.

كانت تظهر عند الغداء والعشاء، وحالما تنتهي وجبة الطعام، كانت تودع الماركيز، ثم تعود إلى قمرتها.

وكان هاينت قد أعد لها مكاناً على السطح منعزلاً عن الرياح ويمكنها الجلوس فيه دون أن تعترض طريق الماركيز أو حتى تقع عيناه عليها.

كانت أثناء تلك الوجبات ظريفة ومضحكة، وكان الماركيز، عندما كان يذهب إلى غرفته، يجد نفسه يفكر في أشياء قالتها، أدخلت التسلية إلى نفسه.

لم يستطع أن يتذكر أنه سبق وتجادل من قبل بمثل هذا العنف مع إمرأة بالنسبة إلى مواضيع نظرية.

لقد كان يجد نفسه مخالفاً لها بشكل مستمر، مثلاً، عندما زعمت أن النساء يجب أن يسمح لهن بالقيام بأشياء دون الحاجة إلى رقابة الرجل وحمايته، أو أنها، عندما تقوم بعمل تعيل به نفسها، يجب أن تمنح نفس الأجر الذي يأخذه الرجل.

عند ذلك قال الماركيز بازدراء: «إنك لن تجدي صاحب عمل يوافقك على ذلك. فليس ثمة امرأة تؤدي العمل بنفس مهارة الرجل.»

فتساءلت شيكارا قائلة: «ألا يعتمد هذا على نوعية العمل نفسه؟ فنتيجة عمل المرأة في مصانع القطن، وكذلك إنتاج

www.liilas.com

الغزل القطني هو بنفس جودة عمل الرجل، ومع ذلك فأجرها هو ربع الأجر الذي يأخذه العامل المتفوق والذي هو الرجل، هذا ليس عدلاً.»

فقال الماركيز بحزم: «انهم يوظفون المرأة لأنها رخيصة الأجر، فلو طالبت بنفس أجر الرجل، لن تجد من يمنحها عملاً.»

وإذا كان هو يحاول أن يناقش مزاعمها تلك، فشيكارا كانت تمضي قسماً كبيراً من وقتها، حين لا يكونان معاً، وهي تفكر في مواضيع يمكنها أن تتحداه بها.

كانت تستمتع بمثل هذه المناقشات كما لم تستمتع بشيء منذ زمن طويل.

وكان وجودها مع الماركيز يختلف تماماً عن وجودها مع عمها الذي كان يفرض قانونه دون أن يسمح لأحد بأن يعبر عن رأيه.

أدركت أن الماركيز رجل مفرط الذكاء، والأكثر من ذلك هو أن معلوماته كانت أوسع مما كانت تتوقع في مثل روعته وشخصيته الاجتماعية.

كانت معرفتها بالرجال الذين كانت تلتقيهم في الحفلات التي كانت عمتها تأخذها إليها وأولئك الذين كانوا يزورون منزل عمها، كانت معرفتها تلك قد جعلتها تعتقد بأن كل اهتمام الرجال كان ينحصر في الرياضة بأنواعها، ثم اغتياب الآخرين.

لقد استمعت، منذ طفولتها إلى أولئك الرجال الذين انغمسوا في دراسة التاريخ، ولشهرة والدها في علم الآثار كان يستضيفهم ويكرم وفادتهم رجال الدولة، والمؤرخين،

والكتاب، وكلهم كانت شيكارا تستمع إليهم باهتمام. ولأسفارها الكثيرة، اصبحت ثقافتها غنية متنوعة.

لقد صارحت الماركيز بقولها: «إن معرفتي بعلم الحساب تدعو إلى الرثاء، كما أن أمي كانت تقول دوماً انني لا أملك أياً من الصفات المحببة.»

فسألها الماركيز: «ما الذي كانت تعنيه أمك بذلك؟ إنني أوافقها على قولها هذا حتى قبل أن أعرف الصفات تلك.»

فعبست شيكارا في وجهه قليلاً، ثم أجابت: «لقد كانت أمي نشأت على عقيدة هي أن كل امرأة يجب أن تحسن العزف على البيانو لكي تعزف في المنزل بعد أية حفلة عشاء تقام فيه، وأن عليها أيضاً أن تعرف الخياطة والرسم بالألوان المائية وكذلك تنسيق الزهور.»

فسألها: «وهل أنت لا تحسنين أياً من هذه الأشياء؟»

فأجابت: «إنني... بصراحة، لا اظنك تستمتع بسماع عزفي. كما أنني أكره الرسم بالألوان المائية حتى ولو رسمها شخص آخر، ثم انني افضل كثيراً أن أرى الأزهار في منابتها، من أن اغرزها في الزهريات كالقضبان.»

فسألها: «وماذا عن الخياطة؟»

فأجابت: «يمكنني القيام بذلك بشكل معقول ولكني لا استطيع القول إنني أجد في ذلك أية متعة.»

فهز الماركيز رأسه، قائلاً: «يمكنني أن أرى تماماً انك حالة ميؤوس منها، لن نستطيع قط أن نجد لك زوجاً.»

فردت عليه بحدة: «كن واثقاً من أنني ليس لي رغبة في أن اكون زوجة لأي رجل، فيعاملني وكأنني دمية لا تتحرك إلا إذا حرك هو خيوطها.»

فقال يستفزها: «قد تجدين رجلاً من الحماقة بحيث يعاملك كمثيل له.»

فقالت: «معنى كلامك أنه سيهبط إلى مستواي. إني أؤكد لك أنني لا أريد أن يعاملني أحد باستعلاء، خصوصاً إذا كان من صنف الرجال.»

فقال: «ظننتك في البداية تشبهين نمرة صغيرة، ولكنني أرى خطأي الآن. فأنت في الحقيقة قنفذ مكسو الظهر بالأشواك الصلبة.»

«أظنني أفضل أن أكون قنفذاً، على أن اكون بالشكل الذي اعتاد عمي أن يصفني به.»

«وماذا كان يقول؟»

«انه كأكثر الرجال، كان يفضل الخيل على النساء، وكان دوماً يصفني بأنني مهرة صعبة المراس.»

«اظن لديه حكمة في هذا.»

فالتمعت عينا شيكارا بالغضب، ولكنها ما لبثت أن ضحكت وقالت: «انك تتعمد اغضابي فلو كنت نمرة صغيرة حقاً، لعضضتك.»

وما لبث أن انتقل الجدال بينهما إلى حديث جاد عن الأديان الشرقية التي كانت تسفر عنها الحفريات الأثرية العديدة التي كان يهتم أبوها بها، ثم التأمل في ما لو تمكن أحد من اكتشاف منابع النيل.

سألته شيكارا: «هل رأيت النيل من قبل؟»

فهز الماركيز رأسه: «كنت دوماً أتمنى زيارة القاهرة، ولكن يبدو أنني لم أكن أجد وقتاً لذلك.»

فنظرت شيكارا إليه، وأدرك هو ما تفكر فيه، فقال: «إذا

كنت تريدين أن تقولي إن هذه فرصة ممتازة لي للقيام بذلك، فانسي هذا، فإني شديد الرغبة في الذهاب إلى الجزائر، فإن لدي صديقاً هناك لم أره منذ سنين طويلة.»

«وهل ستأخذني إلى حيث ذلك المكان البعيد؟»

فأجاب: «هذا يعتمد على حسن سلوكك، وإلا ربما أنزلتك عند شاطىء جبل طارق حسب طلبك.»

فقالت: «سأكون حسنة السلوك جداً جدا...»

وعندما انتهى الغداء، نهضت لتترك القمرة. وحدّث الماركيز نفسه بأنه لم يصدر عنها، حتى الآن، أي إزعاج، ورغم كرهه الإعتراف بذلك، فقد شعر بالراحة لوجود شخص يتحدث إليه أثناء وجبات الطعام.

والأكثر من ذلك أنها اعجبت بالطعام الذي كان يعده طاهيه مظهرة شهية بالغة ودراية في الطهو ما لم يعهده في أية امرأة من تينك اللاتي كان يعرفهن، واللاتي كن غير قادرات على مشاركته تذوق الطعام وذلك حفاظاً على صحتهن.

وفكر في أنواع الطعام التي كان يتناولها في المنازل التي كان يزورها والتي كان اكثرها تافه الطعم لا يثير الشهية احياناً.

لقد كان الماركيز يعلم بأنه لم يكن يصر فقط على أن تكون مائدته سخية كالعادة في المنازل الكبيرة، وإنما أن يحظى كل نوع من الطعام فيها بعناية خاصة.

وكان يقول دوماً: «ما يهمني هو النوع وليس الكمية.»

وأخذ يفكر في أن شيكارا هي بالتأكيد فتاة صغيرة غير عادية، ولكنه مالبث أن نبذها من ذهنه وهو يخرج إلى برج

القيادة ليتحدث مع القبطان الذي قال له: «أخشى أننا سنصادف جواً سيئاً، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «لقد توقعت أنا أيضاً أن يكون البحر مضطرباً نوعاً ما في هذا الوقت من السنة.»

«يبدو وكأننا سنتعرض إلى عاصفة.»

«على كل حال، أنا واثق من أن اليخت فرس البحر سيتمكن من مواجهة ذلك.»

فقال القبطان: «طبعاً يا سيدي، ليس لدي شك في ذلك، ولكن عاصفة حقيقية في مثل هذا الوقت من السنة، ليست أمراً مستحباً، كما أن لدينا سيدة هنا.»

وأوشك الماركيز على القول بأن أمر شيكارا لا يهمه، وأنها إذا تضايقت فهذا أقل ما تستحق.

* * *

وعندما استيقظ في الصباح التالي، رأى أن افكار القبطان قد تحققت تماماً.

لقد كان البحر هائجاً مضطرباً تتلاطم أمواجه بتأثير رياح عاصفة هوجاء كانت تهب من الشمال، وتشيع برداً قارصاً.

وكان اليخت، رغم كونه اكثر اتساعاً من أكثر اليخوت الأخرى، كان يرتفع ويهبط ويدور بفعل الأنواء تلك ما جعل التحرك فوقه بالغ الصعوبة، كما جعل من المستحيل تجهيز أي طعام.

وعند الغداء أحضر هاينت للماركيز الطعام في شطائر موضوعة في سلة كي لا تتناثر في طريقه أثناء تخبطه في

السير والعاصفة تطوح بالمركب، وذلك فيما لو حمله في صينية كالعادة.

أكل الماركيز الشطائر، وعندما لم يلمح أثراً لشيكارا، عاد إلى برج القيادة.

وتملكه الافتتان وهو يرى يخته يختبر قوته في مصارعة القوى الجوية، وكان يعلم جيداً أن عدداً كبيراً من السفن الصغيرة والتجار يهلكون كل عام في هذا الخليج.

ولكن عندما أخذت الأمواج الهائلة تتحطم فوق مقدمة اليخت فرس البحر، رأى وقد تملكته البهجة، أنه قد بنى حقاً مركباً من الدرجة الأولى وأنه لن يصيبهم ضرر مهما كان من عنف العاصفة.

وعندما لم تظهر شيكارا عند العشاء، سأل هاينت عما إذا كانت بخير.

فأجاب هاينت: «أظن ذلك، يا سيدي، لقد قرعت بابها منذ ساعتين تقريباً وسألتها عما إذا كانت تريد أن تأكل شيئاً، فأجابت بأنها في أتم خير ولا تريد شيئاً.»

فسأله الماركيز: «ألم تتناول غداء؟»

«كلا، يا سيدي. لقد سألتها إن كانت تريد أن تأكل شيئاً، فأجابت بالنفي.»

فقال الماركيز باسماً: «أظنها تعاني من دوار البحر، وهذا لا يدعو للدهشة، لقد اخبرني القبطان أن عدداً من البحارة قد أصبحوا عاجزين عن الحركة تماماً.»

فتمتم هاينت يقول: «انك محظوظ يا سيدي لعدم تأثير البحر عليك.»

فأجاب الماركيز: «وكذلك أنت.»

وكان العشاء لا يختلف إلا قليلاً عما تناولوه في الغداء، إذ كان من المستحيل على الطاهي أن يطهي شيئاً، ولهذا كان كل ما أحضروه إليه، بارداً.

قال الماركيز: «اظننا سننتهي من كل هذا، قريباً، وعلى كل حال، غداً ستكون الرياح قد سكنت.»

فأجاب هاينت: «إن من فوائد امتلاك مثل هذه السفينة السريعة، يا سيدي أن اجتياز الخليج هذا سيستغرق منا وقتاً أقل مما اعتدناه في السفن الأخرى.»

فقال الماركيز وقد شعر بالرضى: «هذا صحيح.»

وعندما أصبح وحده، تناول كتاباً، ولكن بالنظر إلى تلاعب الأنواء بالسفينة ماجعلها تدور حول نفسها حيناً، وتكاد تقف على رأسها أحياناً، قرر الماركيز أن من الأفضل له أن يذهب إلى الفراش.

سار في الممر، وعندما وصل إلى قمرة شيكارا، تملكه التردد.

إذا كانت تعاني من دوار البحر، كما يظن، فهي لم تطلب العون أو أي مهدىء تشربه مما ينصح به عادة في مثل هذه الأحوال.

وبعد تردد قصير، قرع الباب، لم يسمع جواباً، وبعد أن انتظر هنيهة، أدار مقبض الباب بخفة ظاناً أنها قد تكون نائمة، وبنظرة واحدة إلى السرير، أدرك أنه فارغ، ثم إذا به يرى شيكارا جالسة على الأرض متكورة على نفسها، ويداها تغطيان وجهها، ظن لأول وهلة، أنها قد أصيبت بضرر ما، وأنها قد تكون غائبة عن الوعي لكسر أصابها في ساقها أو ذراعها.

ولكن، عندما تقدم نحوها بصعوبة بالغة، رآها ترتعش.

سألها: «ما الذي جرى؟»

وانحنى بجانبها وأدارها لتصبح في مواجهته، وهو يسألها: «ماذا جرى؟ هل أنت مريضة؟»

فرفعت يديها عن وجهها ورفعت بصرها إليه. كان الذعر يطل من عينين قد ملأتا وجهاً بالغ الشحوب.

حدّق فيها لحظة، ثم قال ذاهلاً: «هل أنت خائفة؟»

فأخذت تتمتم بصوت متشنج.

كان يشعر بها ترتجف، وكان ارتجافها بشكل لم ير الماركيز مثله من قبل، قال يهدىء من روعها: «لا بأس عليك.»

«هل... هل سنغرق...؟»

«اعدك بأننا إذا غرقنا، فسأطالب بإعادة ما أنفقته على بناء اليخت. إن فرس البحر مكفول كسفينة صالحة للإبحار.»

قال ذلك راجياً أن تطمئنها لهجته الضاحكة، وبدا أن ارتجافها قد خف قليلاً، ولكنها لم تتحرك وبقي وجهها مختبئاً، ثم قالت بعد لحظة.

«أنا... أنا خائفة، ليس ذلك... بيدي... أنا دوماً أخاف من... العاصفة.»

فقال: «هذا مفهوم تماماً، فتغيير الجو هذا مزعج تماماً. ولكنني اؤكد لك، يا شيكارا، بأننا سنصمد أمامه والقبطان يظن بأن الرياح ستسكن غداً.»

بعد لحظة، قالت: «إني أشعر... بالخزي.»

فقال: «هذا شيء عادي تماماً بالنسبة... لامرأة.»

كان قد سبق الكلمة الأخيرة لحظة تردد ما جعل شيكارا تصدر صوتاً أشبه بالضحك. فتابع هو يقول: «إني مسرور طبعاً، إذ أجد خلف هذا الظاهر العدواني المستقل الذي لديك، نفساً انثوياً. انك خائفة، ياشيكارا، كأية امرأة طبيعية في مثل هذه الظروف.»

نظرت إليه وقالت: «إن هذه ضربة منك... كما يقال في الملاكمة.»

فأجاب: «إنني، في الواقع، لا أتصرف كسيد مهذب. ولكنك طالما اخبرتني بأنك تريدين المساواة مع الرجل.»

فبدت منها حركة وكأنها تهم بالإبتعاد عنه، ولكن السفينة تمايلت في هذه اللحظة ثم أخذت تهتز بعنف.

ابتسم الماركيز، ثم قال: «اظنك تشعرين بالأمور اسوأ مما هي في الواقع، لمجرد أنك لم تتناولي أي طعام أو شراب، إنني أصر على أن تأكلي شيئاً، إذا تمكن هاينت من إحضاره إلى هنا.»

فهمست شيكارا: «إن في هذا... إزعاجاً كثيراً.» كان يعلم أنها تحاول أن تجيب بلهجة واقعية كلهجته.

فقال: «لقد تعلمت دوماً أن ليس ثمة إزعاج حيث تكون المرأة، أكثر من هذا، ياشيكارا، أصبحت واثقاً تماماً من انك امرأة ولست، ولست... واسمحي لي بهذا التعبير، مثل الرجال.»

وبشيء من الصعوبة، وصلت إلى سريرها، حيث زحفت إليه، ثم رفعت الأغطية تغطي جسمها وهي ترفع إليه عينين متسعتين مازال الخوف يطل منهما.

قال: «إنني سأستدعي هاينت، فهو اكثر مني تجربة

بالنسبة للتحرك في السفينة أثناء العاصفة، وإذا شئت فسأمكث معك هنا ياشيكارا.»

«أر... أرجوك أن تبقى.»

لقد سمع بالكاد كلماتها هذه، ولكن عينيها كانتا منصبتين على وجهه، فعلم ما تريده دون الكلمات، ومرت ساعة قبل أن تشعر شيكارا بالنعاس بعد أن أكلت شيئاً من الطعام.

قال الماركيز: «إذا كنت تخافين في الليل، عليك فقط أن ترفعي صوتك بالنداء، أو تقرعي الجرس لهاينت فيأتي إليك. وأنا اعدك أن لا نتخلى عنك نحن الاثنين.»

فقال هاينت: «هذا صحيح يا آنسة، إنني ابقى متأهباً لاحتمال أن يحتاجني السيد، هذا إلى أن واحداً أو اثنين من البحارة قد أصيبا بجراح وكدمات، وقد يحدث ذلك لكثيرين، من جراء اهتزاز المركب، وذلك قبل أن تنتهي الليلة هذه، فعليَ العناية بهم.»

فقال الماركيز: «لقد نسيت أن أقول لك ان هاينت هو ممرض ذو خبرة جيدة جداً. وأظن حقاً أنه كان عليه أن يكون طبيباً.»

فأشرق وجه هاينت بالابتسام لهذا الإطراء، وقال مزهواً: «إنني لا أسافر أبداً من دون صندوق أدويتي. ومن حسن الحظ أنني احضرته معي في هذه الرحلة، يا سيدي. وعليَ أن أعيد ملأه من الأربطة والجبس في أول مدينة نصل إليها.»

فقال الماركيز: «إنني اعتمد عليك دوماً في الطوارىء يا هاينت.»

خرج الخادم، فقال الماركيز لها: «نامي ياشيكارا،

سيتحسن الجو غداً، أؤكد لك ذلك. وحاولي ألاَ تشعري بالخوف، إنني أعرف انك لا تهتمين بآرائي في أمور كثيرة ولكنني أؤكد لك بأن اختياري اليخت لهذه الرحلة للسفر بأمان، كان اختياراً لا مثيل له.»

فقالت: «اشكرك لتلطفك هذا... معي.»

وحملت كلماتها هذه من الكآبة ما بدا معها وكأن رغبة التحدي فيها قد فارقتها.

أضافت تقول: «إني آسفة... لكوني أزعجتك بينما كنت وعدتك... بأن اتحاشى ذلك.»

فأجاب: «بل أصبحت ذات أنوثة. وكما سبق واخبرتك من قبل، كل النساء مزعجات إلى حد كبير... ولهذا اكرههن.»

أدركت أنه يمزح معها. ولكنها، بعد أن أغلق خلفه باب القمرة، أخذت تفكر في أن ما يقوله هو صحيح تماماً.

لقد كانت حاولت أن تتمسك بالعهد الذي أخذته على نفسها بأن لا تكون مصدر إزعاج لأحد حتى أثناء شعورها البالغ بالخوف الذي كان يدفعها إلى الصراخ، ولكن قرارها الحسن هذا نحي جانباً لتصبح مصدر إزعاج كبير، فهي تزعجه ثم يضطرون إلى إطعامها بعد أن تناول الماركيز طعامه. ولم تستطع إلا أن تفكر في أنه، بعد كل ما حدث، لا بد أن ينزلها هذا الأخير على شاطىء جبل طارق بدلاً من الجزائر حيث كانت تأمل.

قالت تحدث نفسها، سيكون الذنب في ذلك، ذنبي أنا، لا أدري لماذا أنا بهذه الحماقة.

كان اليخت يتمايل في سيره بشكل عنيف، ولكنها لم تعد تشعر بنفس الخوف الذي ساورها من قبل. كما أن النعاس

بدأ يتغلب عليها، وما أن أغمضت عينيها حتى لم تعد واثقة تماماً من الحد الذي انتهت فيه افكارها لتبدأ أحلامها.

* * *

قال هاينت للماركيز: «لقد أعطيت الفتاة شيئاً يساعدها على النوم.»

فأجاب الماركيز: «هذا عمل حكيم، هل وضعته في كوب العصير؟»

«نعم يا سيدي، وهي لم تلحظ ذلك أبداً. ليس ثمة نساء كثيرات يحسن التذوق مثلك، يا سيدي. فأنا لم استطع وضع شيء لك لم تكن تعرفه سيادتك.»

فقال الماركيز: «لا تدع الآنسة بارليت تسمعك. فهي لا تنفك تقول بأن المرأة بنفس كفاءة الرجل في كل شيء تقريباً ماعدا، كما يظهر، من ناحية الخوف من العاصفة.»

فقال هاينت: «هناك رجال كثيرون يكرهون العواصف هم أيضاً.»

فقال الماركيز: «هذا ما أعتقده. ولكن الخوف هو شيء طبيعي في المرأة سواء من العاصفة أم من الفأر.»

فأجاب: «هذا صحيح.»

وعندما أصبح الماركيز بمفرده، وجد نفسه يفكر في شيكارا.

وحدث نفسه بأنها مازالت صغيرة السن، وأنها ستنسى مفاهيمها السخيفة تلك عن الرجال وتجد زوجاً يرعاها.

وأخذ يتساءل عن نوع الرجل الذي سيجتذبها في النهاية، ليقرر أخيراً أنه لا بد أن يكون ذكياً، ثم أخذ يتذكر أحاديثهما

المتبادلة وكيف أن شيكارا لم تستوعب فقط جمال الأمكنة التي زارتها، وإنما أظهرت أيضاً معرفة بعادات وتقاليد مختلف البلاد، ما أثار دهشته، دوماً كان يهتم بتاريخ البلاد المختلفة ولكن كان من النادر أن يصادف أحداً يشاركه تلك الاهتمامات إلى حد كبير، وهذا كان سبب تفضيله السفر مع هاينت.

ووجد نفسه يتذكر الآن أنه كان يتمنى دوماً السفر يوماً ما إلى مصر.

لقد خلب لبه تاريخ الفراعنة، وكان يتابع باهتمام بالغ، المكتشفات الحديثة التي حدثت مؤخراً بين الأهرامات، وقال لنفسه بأنه يجب أن يرى أبا الهول، ولكنه عاد ففكر في أنه لا يريد أن يظهر تقرباً إلى شيكارا بأخذها إلى النيل بيخته.

عزم على أن يذهب أولاً إلى الجزائر، وإذا ناسبه السفر إلى مصر، فقد يقوم بذلك قبل عودته إلى انكلترا.

إستيقظ الماركيز بعد نوم طويل مريح لم يشعر فيه بأي إزعاج، ليجد أن العاصفة قد ابتدأت تهدأ. كان اليخت مايزال يتمايل، ولكن عنف تلاطم الموج لم يكن ليقارن بما كان عليه في اليوم السابق.

وعندما ذهب إلى برج القيادة، وجد القبطان مبتهجاً. وبادره قائلاً: «لقد كنت على حق، يا سيدي، إن فرس البحر سفينة معتبرة، وليس لنا أن نقلق عليه بعد هذه التجربة التي مرت عليه.»

فسأله الماركيز بدهشة: «وهل كنت قلقاً؟»

فبدا شيء من الإرتباك على القبطان: «ان السفينة الجديدة هي دوماً مبعث للقلق، يا سيدي، ثم إنني لم أر أسوأ

من هذه العاصفة في هذا الخليج، رغم مروري به عشرات المرات.»

فسأله: «هل كنت تعتقد حقاً أننا كنا في خطر؟»

أجاب القبطان: «أنا لن أخجل من الاعتراف الآن، بأنه مرت عليَّ لحظات من القلق الجاد.»

فقال الماركيز بصدق: «لم يخطر ذلك ببالي قط، انك تدهشني.»

فقال القبطان: «إذا كان يناسبك، يا سيدي، فأنا أرى أن نتوقف في لشبونة. إن علينا أن نقوم ببعض الاصلاحات، فالخدم ابلغوني عن تحطم عدد كبير من الأواني.»

فقال الماركيز: «سنتوقف إذن في لشبونة.»

«شكراً يا سيدي.»

ونزل الماركيز إلى الغداء ليجد شيكارا قد سبقته إلى هناك.

كانت تبدو أنيقة الملابس، ولكن وجهها كان شديد الشحوب رغم أن عينيها لمعتا حين وقعتا عليه.

سألها: «هل أنت أحسن حالاً؟»

فأجابت: «إنني بخير تماماً، وكذلك شديدة الخجل من نفسي.»

«ليس هنالك ما يدفعك إلى الاعتذار.»

«إنني أشعر بالمذلة لعدم تمكني من منع نفسي من أن اكون حمقاء بهذا الشكل.»

وعندما رأت الماركيز يبتسم، قالت بلهجة الاتهام: «انك مسرور طبعاً لاثباتك صحة رأيك، فأنا امرأة ضعيفة متشبثة، فهل هنالك ما هو أحسن من هذا لإثبات نظرية الرجل؟»

فقال: «ما رأيك في أن لا أتمسك بهذا البرهان ضدك؟ إننا سنعود إلى معاركنا من دون الإشارة إلى ما حدث الليلة الماضية.»

فقالت بمرارة: «أنا أعلم أنك تعتبر نفسك كريماً.»

فرد عليها بحدة: «لا دخل للكرم بهذا.»

وأخذا في الخصام طوال وقت الغداء كعادتهما من قبل، وعندما انتهى الغداء، وقامت شيكارا لتخرج، قال لها الماركيز: «ما رأيك في البقاء هنا في الصالون عصر هذا اليوم؟ انك لن تضايقيني حيث انني سأذهب إلى برج القيادة، وأظنك بعد أربع وعشرين ساعة من المكوث في غرفتك لا بد تشعرين بالملل منها.»

فنظرت شيكارا إليه بشيء من التشكك بينما أضاف هو قائلاً: «إنني لا أقصد بدعوتي هذه شيئاً. فأنا لا اعاملك كمخلوق ضعيف دون إرادة خاصة به.»

فقالت بشيء من التحدي: «حسناً جداً. سأبقى، ولكن إذا رأيتني اثقل عليك بحضوري، فعليك أن تقول ذلك.»

فأجاب: «أؤكد لك أنني لن أتردد في ذلك.» وتركها بمفردها، وعندما عاد بعد ساعتين، وجدها نائمة على إحدى الأرائك.

بدت له غاية في الهشاشة وصغر السن، جلس على كرسي وأخذ ينظر إليها.

كان يعلم أن ما عانته بالأمس قد أرهقها. فلا شيء اكثر إثارة للأعصاب من الخوف. ولكنه في نفس الوقت رأى أن لديها من الشجاعة ما لم يكن يتوقعه في امرأة، وخصوصاً في سنها هذا. وحدث نفسه بقوله، انها ستصل إلى القاهرة

وتعثر على أبيها بأي شكل كان، متحدية أي شخص قد يحاول منعها، فهي شجاعة حتى ولو كانت متهورة.

والتقط الكتاب الذي كانت تطالعه، ولكنه لم يستطع متابعة الصفحات، ذلك أن عينيه كانتا تتحولان إلى شيكارا على الدوام وهو يراها بالغة الحلاوة.

ربما سر ذلك يبدو في رقة ملامحها أو شكل وجهها.

وتساءل عمن تكون أمها، شاعراً بأن مثل هذه الملامح غير موجودة إلا في السلالات الأرستقراطية، وتساءل عما عسى يقول اصدقاؤه لو أنهم علموا مكان وجوده حالياً ومع من، إن بإمكانه أن يتصور النكات التي ستنتشر في النادي والتعليقات التي كانوا يذيعونها عنه كلما علموا بتصرفاته.

وشعر بالرضى وهو يفكر في أن لا أحد الآن، على الأقل، يعلم بوجود شيكارا هنا.

وتذكر زملاءه الفتيان في كلية إيتون والذين كانوا يقعون في الحب بشكل مخيف، وغالباً مع فتيات غير ملائمات.

وفي جامعة أوكسفورد، كان الأمر هو نفسه، فقد كان نصف من كانوا في السنة النهائية من دراستهم، لا يمضون أوقاتهم في الدراسة، وإنما في ملاحقة الفتيات.

ومرة أخرى، عاد ينظر إلى شيكارا ويفكر في كراهيتها غير العادية للرجال، محدثاً نفسه بأنها لا بد كانت غير محظوظة مع الناس الذين كانت عرفتهم.

فكر في اللورد سترود، فتملكته رجفة. ذلك أنه لم يستطع أن يتصور ذلك الرجل المتغطرس الثقيل الظل متزوجاً من فتاة حلوة حساسة مثل شيكارا.

وهمس لنفسه قائلاً، لا عجب في هربها هذا، وكأن تفكيره فيها جعلها تستيقظ، ففتحت عينيها، وإذ رأته جالساً على كرسي بجانبها، ابتسمت وهي تقول بصوت يثقله النعاس: «كنت أحلم... بك.»

فقال: «هذا مديح لي، لأنني أعلم أنك لا تسمحين لأي رجل بأن يقحم نفسه في احلامك.»

فقالت: «لقد كنا... نسير في الصحراء راكبين جياداً... أو ربما هي جمال.»

فقال بحماس: «لو ترك لي الخيار، لفضلت الجياد، فأنا لا أحب الجمال.»

فضحكت شيكارا وقد استيقظت تماماً الآن، جلست على الأريكة وهي تقول: «هل اضايقك؟ هل عليّ أن أذهب؟»

فأجاب: «بل أنا مسرور ببقائك، هل لاحظت شيئاً؟»

فنظرت حولها بفضول، فقال: «لقد هدأ البحر.»

فقالت: «آه، نعم. ما أروع ذلك.»

ووضعت قدميها على الأرض، ثم نظرت إلى الماركيز وقالت بصوت خافت: «إنك كنت بالغ اللطف، لم اكن أظن أن... رجلاً قد يكون... بهذا الشكل.»

فسألها: «بأي شكل؟»

«متفهماً... ومراعياً للمشاعر...»

فقال: «لقد وصلت إلى استنتاج هو أن من تعرفين من الرجال هم غريبو الاطوار، تماماً كما سبق وقلت انت عن النساء اللاتي أعرفهن.»

فضحكت قائلة: «يمكنني أن أتكهن بنوع النساء اللواتي تعرفهن. إنهن ذكيات متألقات وجميلات جداً، أما رجالي

فهم إما غير ناضجين ويبعثون على السأم، وإما كبار السن متغطرسين.»

فقال: «لقد كنت سيئة الحظ، كما قلت لك الآن. ويوماً ما ستقابلين رجلاً مختلفاً، عند ذلك أراهنك، يا شيكارا، بأنك ستقعين في الغرام.»

فنظرت إليه، وبدا، للحظة، أن نظراتهما تشابكت وفجأة، امتدت يد الماركيز تقرع الجرس، وهو يسألها: «أرى، حيث أننا معاً الآن، أن نتناول الشاي الانكليزي... لِمَ لا؟ ويهمني أن أعرف ما إذا كان الطاهي يستطيع صنع كيك لذيذ.»

* * *

وصلوا إلى ميناء تيجو حوالي الظهر. وهتفت شيكارا حين كان المركب يصعد إلى مصب نهر تاغوس، وحين وقعت نظراتها على جمال عاصمة البرتغال.

كانت لشبونة مبنية على منحدرات مجموعة من التلال الصغيرة فوق مصب النهر، ما يجعلها، كما يعرف الماركيز إحدى أجمل عواصم أوروبا.

قال وهو يقف بجانب شيكارا: «دوماً كان رأيي هو أن لشبونة تنافس بجمالها الرائع مدينتي نابولي واستامبول.»

كانت مختلفة تماماً عن اكثر العواصم. فقد كانت الغابات وكروم العنب والمروج الخضراء تحيط بأبنيتها المختلفة الألوان والمغطاة بالقرميد.

وكانت شيكارا قد سبق وسألت الماركيز عن المدينة فاخبرها أن أقدم جزء فيها هو ألفاما، وهو المنطقة

الشرقية حيث ثمة شوارع ضيقة متعرجة تتجه إلى النهر بين الأدغال.

وتابع يقول: «إن المنطقة المركزية، بيكسا، بنيت سنة ١٧٥٥ بعد زلزال دمر كل شيء، انك ستجدين أن الشوارع عريضة كما أن هناك متاجر ممتازة وأنا واثق من انك تتشوقين إلى زيارتها.»

فنظرت إليه، ثم سألته: «كيف عرفت ذلك؟»

«شعرت بأنك بحاجة إلى ملابس جديدة، وذلك نظراً لصغر حجم حقيبة ملابسك.»

فقالت: «هذا صحيح تماماً.»

ولم يكن قد غاب عن ملاحظة الماركيز، المهارة التي كانت تدبرت بها أمرها مع الأثواب القليلة التي عندها.

وبالنظر إلى خبرته بالنساء، فقد أدرك أن نفس الثوب المسائي الأبيض، كانت تغير مظهره في كل مرة ترتديه فيها للعشاء، وذلك بإضافة أحزمة عريضة مختلفة الألوان، إليه، إلى زينات أخرى ملونة.

ولبرودة الجو، لم تكن تستطيع ارتداء أي شيء أثناء وجودها على ظهر المركب ما عدا ثوب السفر والمعطف المخملي الرائع الذي اعطاها إياه من خزانة أخته.

ولكنها كانت تغير القميص تحت السترة بآخر من لون مختلف، كما كان لديها عدة أوشحة حريرية مختلفة الألوان كانت تضعها حول عنقها بطرق مختلفة.

وتنهدت شيكارا وهي تقول: «لشد ما أنا بشوق إلى ملابس جديدة. ولكنني لا أظن من الحكمة أن أنفق نقوداً كثيرة على الشراء، وبعد، كما سبق وأشرت عليّ، عندما

أبيع كل مجوهرات أمي، سيكون عليّ أن أجد عملاً.»

«لقد أخبرتني أن هذا أمر سهل.»

فقالت بسرعة: «أنا واثقة من ذلك، ولكن بما أنني امرأة، لا شك أن الأجر الذي سأتقاضاه سيكون هزيلاً لا عدل فيه.»

فضحك الماركيز وقال: «حسناً جداً، سأمنحك قرضاً تعيدينه إليّ بعد أن تحصلي على إرثك، أو إذا تزوجت من مليونير.»

فقالت: «إنني لن أتزوج من مليونير بكل تأكيد ولكن...» وسكتت.

فسألها: «ولكن ماذا؟»

«كانت أمي تقول ان السيدة المهذبة لا تأخذ نقوداً من رجل.»

فأجاب: «ولكنك تقولين على الدوام ان المرأة مساوية للرجل. وأنت بحاجة إليه، وطبعاً ستقبلينه في ظروف كهذه.»

فقالت بتردد: «إذا كنت واثقاً... تماماً من... أن لا بأس في ذلك...»

فقال متحدياً: «ماذا تعنين بقولك (لا بأس في ذلك)؟ هل تظنين أنني سألاحقك لسداد الدين هذا؟ أم اسوأ من ذلك وهو أن أطلب منك شيئاً آخر مقابل هذا الدين؟»

قال ذلك دون تفكير، فنظرت إليه بحيرة وسألته: «وما هو هذا الشيء الآخر؟»

وعندما أدرك مبلغ براءة سؤالها ذاك، أجاب بسرعة: «هو أن أجعلك تشتغلين عندي مقابل ذلك. فالطاهي كان قد طلب من يساعده في غسل الأواني.»

فضحكت وقالت: «لا أمانع في هذا العمل إذا هو علمني كيف اطهي ذلك الطعام اللذيذ الذي يصنعه.»

فقال: «عليك أن تخبريه بذلك، فهذا يسره.»

وبعد أن تحدثا في مقدار المبلغ الذي تحتاجه، نزلا إلى الشاطىء متجهين نحو الشوارع الفسيحة في بيكسا وقد وضعت شيكارا خمسة وعشرين جنيهاً في كيس نقودها.

ونبهها الماركيز: «إن عليك أن تحوليه إلى العملة المتداولة، وسيكون بذلك مبلغاً ضخماً.»

فقالت متأملة: «إن ما سأحتاجه في مصر هو كثير من الملابس الخفيفة الناعمة القماش.»

فقال موافقاً: «طبعاً، ولا تنسي شراء مظلة وقبعة قش تحمي رأسك من الشمس، لا أظنك تحبين أن تصيبك ضربة شمس.»

«لقد سبق وزرت بلاداً اكثر حرارة من مصر.»

«المعذرة إذا كانت نصيحتي في غير مكانها.»

فقالت: «إنك تعلم أنني لم اكن أعني ذلك. فقد كنت معي بالغ اللطف وأنا متلهفة إلى ثوب جديد اكثر مما تتصور، لقد سئمت من ثيابي هذه.»

فقال: «إنه شعور نسائي تماماً.»

ولكنها لم تشأ أن يجرها إلى جدل جديد، فلم تفعل سوى أن ضحكت منه، أخذها الماركيز إلى ما بدا لها افضل متجر لثياب النساء، وكانت واثقة من أن بضاعته باهظة الثمن.

كان هناك عدد كبير من الأثواب لكي تختار منها. وكان الماركيز يساعدها على ذلك، عندما نظرت إليه امرأة كانت خارجة من إحدى غرف القياس، وذلك بصورة عفوية، وإذا

بها تطلق صرخة سرور بالغ وهي تهتف بانكليزية مهشمة ساحرة: «أوزبورن، هل أنت أوزبورن حقاً وليس خياله؟ كيف أمكن أن أتصور أنني سأراك أنت، من دون الناس جميعاً، في لشبونة؟»

فنهض الماركيز واقفاً وهو يهتف: «مادالينا، إنه سرور لم أتوقعه، آخر مرة سمعت فيها عنك هو أنك غزوت باريس.»

«كنت ناجحة هناك. ولكنني بعد ستة أشهر شعرت بحاجة إلى عطلة، فجئت إلى بيتي.»

فقال: «انك أجمل مما أتذكرك.»

ورأت شيكارا انها، من ناحية الجمال، جميلة حقاً، فهي لم تتصور امرأة قط بمثل هذا البهاء والوجه الفاتن.

وكأن الماركيز قد تذكر وجودها فجأة، فقال: «أقدم إليك الآنسة بارليت ضيفتي وتحت رعايتي.» وأضاف بينما كانت شيكارا تحييها احتراماً: «السنيورا مادالينا مونتيرو، إذا كنت لا تعرفين، هي أشهر ممثلة في أوروبا.»

فقالت السنيورا وهي تنظر إليه بعينين متألقتين: «هذا إطراء بالغ.»

فقال مصراً: «ولكنك حقاً مشهورة، فأنت تعرفين أنني غير مبالغ.»

فابتسمت قائلة: «أحب أن اصدقك، ولكن، اخبرني، إلى متى أنت مقيم هنا؟ ومتى يمكنني رؤيتك؟»

فأجاب الماركيز: «إننا راحلون غداً، ولهذا ستتناولين العشاء معي هذه الليلة، يا مادالينا، إنني أريدك أن تري يختي. إنه جديد، لا مثيل له.»

فقالت: «سيسرني ذلك.»

فسألها: «هل تريدين إحضار اصدقاء معك؟»

«انك تعلم أنني أريد أن أراك لوقت أطول، فلماذا لا تأتي إلى زيارتي قبل العشاء، وبعد ذلك نذهب للعشاء في يختك، ولديّ عشرات من الأصدقاء الذين يتمنون مرافقتي والتعرف إلى اكثر الرجال الانكليز الذين عرفتهم إخلاصاً.»

رأتها شيكارا أشبه بفراشة غريبة ملونة تحوم حول زهرة.

وحدثت نفسها بأنها خلابة. اعطت السنيورا عنوانها للماركيز، ثم قالت: «سأعد الساعات إلى حين يأتي المساء، يا أوزبورن. لقد مضى وقت طويل جداً منذ كنا معاً، إنني لن أنسى أبداً الوقت السعيد الذي أمضيناه في روما.»

فأجاب الماركيز: «وكيف لي أن أنسى؟ كما انك لم تتغيري قط، يا مادالينا، ماعدا ان جمالك ازداد.»

فقالت برقة: «إلى اللقاء هذا المساء، يا صديقي.» ودون أن تلقي ولو نظرة على شيكارا، ابتعدت عنهما.

وعاد الماركيز إلى مهمته في مساعدة شيكارا على اختيار أثوابها.

ولكنها شعرت بأنه لم يعد مهتماً بذلك لأن افكاره أصبحت الآن في مكان آخر.

الفصل الرابع

تأخر الماركيز عن موعد العشاء.

وكانت شيكارا قد دخلت الصالون مرتدية أحد أثوابها الجديدة التي ابتاعتها في بيكسا. وكان هناك أيضاً سيدان برتغاليان بالغا الأناقة.

كانا، هما الاثنان، من ذوي الألقاب الرفيعة، وعلى الفور، أخذا ينظران إليها بأعين واسعة سوداء متألقة ذكرتها بأعين أفراس البحر العاشقة.

وأعجبها التشبيه هذا، وعزمت على أن تكرره للماركيز عندما يكونان وحدهما.

ومع مرور الوقت، أدركت أن وقت العشاء مرّ منذ زمن طويل والذي كان أساساً الساعة التاسعة والنصف.

دهشت حين أخبرها الماركيز، حين رجوعهما إلى اليخت، عن الوقت الذي سيتناولون فيه العشاء، قال لها موضحاً: «البرتغاليون، كالأسبانيين يتناولون عشاءهم دوماً في ساعة متأخرة. وعلى الشخص أن يعتاد هذا التغيير، رغم أن معدته تتلوى من الجوع أحياناً.»

فأجابت: «إنني أعلم أنهم في اسبانيا يتناولون الغداء والعشاء في وقت متأخر. ولكنني كنت صغيرة عندما ذهبنا إلى هناك وكان يحين وقت نومي دوماً قبل أن يتناول أمي وأبي العشاء.»

قال الماركيز: «وفي البرتغال نفس الشيء. ولهذا طلبت أن يقدم العشاء في الوقت الذي يناسب ضيوفي.»

www.liilas.com

وعلى كل حال، كانت الساعة السابعة عندما رأته شيكارا يغادر اليخت إلى الشاطىء.

كانت تجلس على السطح، ودون أن ينتبه هو إليها، أخذت تراقبه وهو ينزل من اليخت إلى القارب.

لقد تحدثت الآن مع ذينك السيدين البرتغاليين. وما لبثت أن رأت الوقت يمرّ دون أن يبدو أثر للماركيز والسنيورا.

وتساءلت عما إذا كان حدث لهما ما أخرهما.

ربما قد حدث لهما حادث؟ ربما لسبب غير معروف، احتجز الجيش أو الشرطة الماركيز؟

وكأنما شعر الضيفان بمخاوفها هذه، من دون أن تنطق بكلمة، قال أحدهما: «لا تشعري بالضيق يا آنسة بارليت. من المؤكد أن الطاهي يعلم أن من عادة شعبنا، وخصوصاً السنيورا مادالينا، التأخر في المواعيد.»

فقال الرجل الآخر: «أحياناً يكون التأخر لسبب قاهر، خصوصاً بالنسبة إلى مادالينا.»

وأخيراً، عندما أصبحت الساعة العاشرة تقريباً، سمعت حركة على سطح المركب أدركت شيكارا منها أن الماركيز وضيفته قد وصلا.

ودخلت السنيورا وقد بدت غاية في التألق.

ورأت شيكارا نفسها تشهق لكمية المجوهرات التي كانت تتحلى بها، ولطريقة خياطة ثوبها.

وكان الماس والياقوت يحيطان بعنقها وذراعيها بشكل لا تجرؤ كثيرات من النساء على الظهور به.

وكان قرطان من نفس الاحجار، يتدليان من أذنيها متألقين بين خصلات شعرها.

ولم تتقدم، لا هي ولا الماركيز، بأي اعتذار عن تأخرهما. وإذ نظرت شيكارا إلى هذا الأخير، لاحظت وكأن ابتسامته تتضمن سخرية أكثر من المعتاد. كما رأت، وقد تملكها الاكتئاب نوعاً ما، بأنه لم يكد يلقي إليها بالاً، وكذلك إلى ثوبها الجديد.

ولكن شيكارا لاحظت أنها كانت تتبادل مع الماركيز كلمات ونظرات خاصة بهما هما الاثنين ما يجعلهما منعزلين عن الآخرين.

فنظرت السنيورا إليه وقد بدت في عينيها نظرة غامضة. ثم قالت برقة فائقة: «إنه أنت من يجعلني سعيدة، كما تعلم جيداً.»

وأدركت شيكارا أن السنيورا تبوح للماركيز بحبها، عندها صدمتها الحقيقة فجأة، وبقسوة كادت تعصف بها. يا لغبائها، وبلاهتها.

وفكرت في صدمتها هذه... لقد صدمت حقاً.

وشعرت فجأة بالارتباك يتملكها.

فقد كانت طوال مدة العشاء توجه كلامها إلى الماركيز فقط، بشكل جعل شيكارا تفكر في أن أمها، لو كانت موجودة، لأصابها الهلع. ولا شك أن عمها كان سيطلب طرد هذه المرأة من بيته.

ورأت شيكارا وهي تراقب الجميع، أنه لم يكن هناك شك في أن الرجال الثلاثة كانوا يستمعون إليها بانتباه.

وحدثت نفسها بأن هذا ليس سوى إداء مسرحي رائع منها.

ولأنه كان مركّزاً اهتمامه على امرأة غيرها، مما جعله

نادراً ما كان يوجه إليها كلمة أو نظرة، فقد شعرت بجرح في كبريائها لا يمكنها تبريره.

أخذت تفكر في أن ليس لها الحق في أن تشكو. فهو لم يوجه إليها دعوة للقدوم معه في هذه الرحلة.

ولكنها، مع ذلك، شعرت بأنها أهملت رغم أنها أدركت، وهي تقارن نفسها بالسنيورا، مبلغ ما تبدو عليه من نقص، ما جعلها لا تدهش لعدم رغبة الماركيز في مرافقتها.

وأخذ الجميع يتكلمون ويضحكون حتى وقت متأخر.

ومع أن شيكارا كانت ترغب في تركهم والذهاب إلى قمرتها، فقد خشيت إن هي وقفت، أن تثير الفوضى.

وقد أصر أحد الرجلين البرتغاليين، في الواقع، على الحديث معها ما جعل من الصعب عليها التخلص منه.

وأخيراً، بعد أن ظنت أنهم لن يذهبوا أبداً، ابتدأت كلمات الوداع وصعدت مع الماركيز إلى سطح المركب لتوصيل الضيوف إلى القارب الذي كان سينقلهم إلى الشاطىء.

نزل أحد الرجلين البرتغاليين أولاً وذلك ليتمكن من مساعدة السنيورا حين تنزل. ولكنها، قبل ذلك، نظرت إلى الماركيز وسمعتها شيكارا تقول له: «هل يجب عليك حقاً أن ترحل غداً؟»

فأجاب: «نعم، يجب علي ذلك.»

فقالت: «اتمنى ان اراك مرة أخرى يا أوزبورن. لقد كان وجودنا معاً رائعاً كالأيام السالفة بالضبط.»

فقال مكرراً: «كان فعلاً كالأيام السالفة، كما قلت.»

كانت شيكارا تنظر إليهما جاحظة العينين وقد تملكها شعور أشبه بالألم.

وقبل أن تفهم نوع شعورها هذا، كانت السنيورا

وصديقاها في زورق يبتعد بهم نحو الشاطىء المتلألىء بالأنوار.

واستدار الماركيز متجهاً نحو الصالون تتبعه شيكارا.

قال: «إن الوقت متأخر جداً، وسنكون نحن الاثنين، متعبين في الصباح دون شك.»

فأجابت: «نعم... ربما سنكون... كذلك.»

وجدت من الصعب عليها أن تتحدث بشكل عادي ولكن لم يظهر على الماركيز أنه لاحظ شيئاً، ثم قال بعد لحظة: «تصبحين على خير، يا شيكارا. أرجو أن تكوني قد استمتعت بهذه الأمسية. إنه تغيير مستحب بعد الذي عانيناه من العاصفة.»

«تصبح على خير... يا سيدي.»

تراجعت ثم ذهبت إلى قمرتها.

عندما وصلت إلى هناك، جلست أمام منضدة الزينة وأخذت تنظر إلى صورتها في المرآة. ولكن كل ما أمكنها رؤيته، هو وجه السنيورا.

وحدثت نفسها قائلة: هذا هو النوع الذي يفضله من الأصدقاء.

وعندما أخذت تفكر في الماركيز، وجدت ذلك الألم الذي كانت شعرت به عند ذاك، ما يزال في صدرها.

وتساءلت، ماذا عندي لأقدمه للماركيز؟

وفجأة تملكها الذعر للمعنى الذي يتضمنه تساؤلها هذا.

لماذا تفكر في أن عليها أن تقدم له أي شيء؟ لقد أخبرته، كما كانت أخبرت نفسها من قبل، بأنها تكره الرجال ولا تريد أي صلة بهم.

فلماذا تهتم الآن بما يفكر فيه الماركيز أو يشعر به نحوها؟

وكان الألم في صدرها عذاباً لا يطاق، وحيث أن شيكارا كانت صادقة مع نفسها كما هي صادقة مع كل إنسان، أدركت سبب ذلك.

كان شعوراً لم تجربه من قبل في حياتها ولم تتصور قط أنها ستشعر به في يوم ما...

كانت الغيرة... كانت الغيرة من السنيورا، ولأنها كانت خائفة من أن تلقي على نفسها أسئلة أخرى بالنسبة للماركيز، قفزت واقفة، واتجهت إلى سريرها لتنام.

وعادت ذاكرتها إلى الماركيز، الابتسامة الساخرة على شفتيه والنظرة التي كانت تراها في عينيه عندما كان يتحدث مع السنيورا.

وحدثت نفسها بيأس، انه لم يسبق أن نظر إلي بهذا الشكل قط.

ثم دفنت وجهها في الوسادة وهي تقول لنفسها مرة بعد مرة.

إن ما أشعر به لا يمكن... لا يمكن أن يكون... هو الحب.

* * *

وعند الفجر من الصباح التالي، أخذ اليخت يتحرك خارجاً من ميناء تيجو. وعندما سمعت شيكارا صوت المحركات، علمت والسرور يتملكها، بأنهم يرحلون مخلفين وراءهم لشبونة والسنيورا.

كانت قد أمضت الليل في عذاب لا يطاق. كانت تكافح بكل قواها وعقلها ضد ما بدا لها أنه خطر جديد عليها.

لقد كان أسوأ من كل شيء كانت واجهته من قبل.

كيف يمكن أن تقع في غرام رجل يكره النساء؟

وكيف يمكن لها، هي بالذات، أن تقع في الغرام؟

ومع ذلك، فقد حدث هذا. وفكرت في أنها، لولا أن جعلتها السنيورا تشعر بالغيرة، ربما ما كانت أدركت ذلك أبداً.

لقد أصبحت الآن على وعي، وقلبها يخفق، بأن الماركيز يرقد في قمرة قريبة منها.

والسؤال الآن هو، إلى متى يستمر ذلك؟

وفكرت في أن ليس باستطاعتها أن تتركه... إنها لن تستطيع ذلك...

ولكنها كانت تعلم أنها تفضل الموت على أن تجعله يدرك ما تشعر به نحوه.

لقد أوضح تماماً أنه لا يكن لها أي اهتمام، وفكرت في أنه، بعد كل ما كانت قالته له، والمجادلات التي حدثت بينهما عن رأيها في الرجال، سيكون في معرفته بحبها هذا، نصراً ساحقاً له. سيستطيع حينذاك، أن يهنىء نفسه لانتصاره على عدائها للرجال. وحدثت نفسها قائلة، «إنه يكرهني لأنني امرأة. ولأنه رجل شهم يراعي مشاعر الآخرين، فقد حمل نفسه على الصبر على وجودي معه.»

وما لبثت أن تذكرت أن اليخت لن يأخذ وقتاً طويلاً للوصول إلى جبل طارق.

وتمنت لو لم تأت قط على هذا اليخت، وأنها وجدت باخرة تنقلها إلى القاهرة بدلاً منه.

عند ذلك، ما كانت لتتملكها مثل هذه المشاعر ولتابعت كراهيتها للرجال ربما بقية حياتها.

ولكن الندم لم يخفف من مشاعرها نحو الماركيز حينما اجتمعا على مائدة الغداء.

سألها: «هل نمت جيداً؟»

فأجابت: «نمت جيداً جداً. شكراً.»

فتابع بشكل عفوي: «أرجو أن تكون مشترياتك قد وصلت جميعها إلى المركب قبل ابحارنا. ثوبك هذا الذي ترتدينه يلائمك جداً.»

فأجابت: «أشكرك.»

ولكنها فكرت مذعورة بأنه يقول ذلك بشكل آلي وأن عليها أن تكون مسرورة إذ لاحظ حتى وجودها في الوقت الذي تشغل فيه السنيورا أفكاره.

ولم تستطع تمالك فضولها فسألته بلهجة متقطعة: «لماذا لم تطل بقاءك في لبشونة؟ وبعد، ليس هناك ما يضطرك إلى الاسراع في الرحيل.»

فابتسم الماركيز قائلاً:

«ليس لي رغبة في أن تقتنصني مطاعم لبشونه.»

فتاقت شيكارا إلى أن تسأله عن السبب في عدم رغبته في البقاء مع السنيورا، ولكنها خجلت من ذلك، بينما غيّر هو الموضوع.

شعرت بأنه لا يحب التحدث عن أي شيء أو امرأة تربطه بها صداقة.

تحدثا عن أشياء أخرى. ولكنها، بعد فترة، لم تستطع أن تقاوم الرغبة في أن تسأله:

«هل السنيورا مادالينا هي حقاً ممثلة متفوقة؟»

فأجاب: «إنها غير عادية في الحقيقة، وقد اشتهر اسمها في عواصم أوروبية عديدة.»

وتاقت إلى أن تسأله متى كانا معاً في روما، ولكنها شعرت بحساسيتها البالغة، أن الماركيز كان يحيط نفسه بحاجز يرد به عنه فضولها.

وبعد لحظة، قال متأملاً: «أظن ما كان لك أن تقابلي فنانات أو ممثلات، مهما تكن شهرتهن ولكن كان من المستحيل عليّ أن لا أستضيف صديقة قديمة.»

فأجابت شيكارا: «حيث انني ضيفة غير مدعوة، فأنا لست في وضع يسمح لي بانتقاد من تطلب مني مقابلته.»

فأجاب: «هذا صحيح. ولكن كان عليّ أن أتذكر أنك في الثامنة عشرة فقط وكذلك آنسة محترمة.»

فقالت بانفعال: «وطبعاً، السيدات المحترمات وهن نساء كغيرهن، لا يمكنهن أن يستمتعن بأوقاتهن.»

فضحك وسرعان ما عادا إلى احدى مناقشاتهما المعتادة، إذ قال: «إن نساء طبقتك يجب أن يبقين في حصن حصين بعيدات عن كل ما يسوء.»

فقالت بعنف: «وبكلمات أخرى، يجب أن يكن ملفوفات بالقطن ويوضعن في أقفاص. وأظن لو كان لدى الرجال خيار لفرضوا الحجاب على نسائهم.»

فأجاب: «إنها فكرة ممتازة وهي ما أحسد عليها الشرقيين على الدوام. حيث يمكن للرجل أن يطلب المرأة التي يريدها، وإلا فهي مقفل عليها فلا تقع في أي مشكلة، وأيضاً لا تكون لها سلطة مزعجة.»

«النساء لن يستطعن الصبر على هذه الحالة.»

فقال: «إذا كنت تتصورين أنهن سيصبحن جيشاً يماثل جيش الأمازون النسائي، واللاتي هن من القوة بحيث يقاتلن

الرجال ويهبطن بهم إلى مستوى الرقيق، إنهن عند ذاك، سرعان ما يجدن ذلك مدعاة للسأم.»

فردت عليه بحدة: «هذا أفضل من أن يكنّ من الأرقاء. عندما نصل إلى الأهرام، فأنا واثقة من أنني سأقتنع من أنها بنيت بأيدي الأرقاء، وأن أولئك الأرقاء كانوا نساء.»

وعندما انتهت من الكلام، ساد الصمت لحظة قال بعدها الماركيز ببطء مستفسراً: «عندما نصل إلى الأهرام؟»

فاحمر وجه شيكارا.

وسألها: «هل نسيت أنني لن أذهب معك؟ أم أنك تضعين خطة لجعلي أذعن لما تريدينه وأحملك إلى النيل؟»

فقالت بصوت منخفض: «إنك تعلم أنني أريد ذلك قبل كل شيء، تعلم أنني سأخاف جداً إذا تركتني في جبل طارق أو أي مكان آخر. ولكن ليس لي الحق في أن أطلب منك ما لا ترغب في القيام به. لقد كنت شهماً... بل بالغ الشهامة معي.»

كان في صوتها رنة صدق، وخلف كلماتها شعور لم يلمسه الماركيز في حديثها من قبل.

نظر إليها بدهشة. وخافت شيكارا أن تكون قد كشفت نفسها، فنهضت واقفة وهي تقول بسرعة: «إنني واثقة من أنك تبغي الانفراد بنفسك، يا سيدي.»

فرد عليها قائلاً بحدة: «إنني طبعاً بحاجة إلى وقت أفكر فيه في ما قلته لي الآن.»

فقالت: «أنا آسفة... فأنا لا أريد أن أكون مزعجة أو لجوجاً بأي شكل. لقد سبق وعاهدتك، وسأفي بعهدي... مهما حدث.»

ثم غادرت الصالون وأغلقت الباب خلفها.

وهتف يحدث نفسه: «تباً لكل ذلك. هل ثمة رجل تتلاعب به النساء مثلي؟»

ولكنه، في نفس الوقت، كان يعلم أنه سيكون من الصعب عليه أن يضع شيكارا على شاطىء جبل طارق أو الجزائر كما كان مصمماً من قبل.

حتى ولو وجد لها سفينة تحملها، وأوصلها إلى منتهاها، واطمأن إلى أنها تحمل ما يكفي الرحلة من المال، فهو يعلم أنها ستصل إلى القاهرة دون أن تكون واثقة من أن أباها سيكون هناك، ودون أن يكون لها أصدقاء.

كانت من البراءة وحداثة السن ما جعله يحدث نفسه مرة أخرى بأنه أخطأ في تقديمها إلى مادالينا.

فهو لم تفته حقيقة أن شيكارا قد صدمت وتملكها الذهول عندما رأت تلك المرأة البرتغالية على ظهر اليخت.

لقد تعرّف عليها في روما قبل سنتين.

فقد كان في المدينة دون أي شيء يعمله عندما قابلها في حفلة وذلك في أول ليلة له فيها.

وقد أعجب بأفكارها وطريقة تصرفها.

وكان الماركيز، وهو الضليع في القانون الذي فرضه على نفسه وهو أن لا يدع نفسه على هواها إلى حد الشعور بالسأم، كان هو الذي وضع حداً لعلاقتهما تلك ثم غادر روما.

ولم يكن قد توقع رؤية مادالينا مرة أخرى. وفي الواقع، عندما توقفوا في ميناء تيجو لم تكن لديه نية ولو في السؤال عما إذا كانت في المدينة.

لقد كان من السهل عليه أن يراها عندما كانت في باريس

منذ فترة، ولكنه لم يكن يحب مطلقاً إفساد ذكرى فترة سعيدة في حياته، وذلك بمحاولة اذكاء جمر قد سبق وخمد.

والآن، لم تعد مادالينا هي التي تحتل أفكاره، بل شيكارا.

كان عليه أن يدرك أن وراء ذلك المظهر الهش، إرادة من حديد.

فهي، كما سبق وصممت على الهرب من عمها، قد صممت على المكوث معه، ثم تحاول بتملق أن تجعله يأخذها إلى القاهرة.

وحدث نفسه قائلاً بصوت مرتفع: لن أفعل شيئاً كهذا.

ولكن نوعاً من عدم الاقتناع كان خلف كلماته الجازمة هذه. وأدرك مسبقاً ضعف موقفه وهو يجد من الصعب أن يتخلى عنها لمصيرها.

وصادف اليخت في البحر المتوسط جواً مدهشاً بجماله.

فقد كان بارداً في الليل، ولكن الشمس كانت تسطع أثناء النهار. وقد ازدادت حرارتها بتوجههم شرقاً ما جعل شيكارا ترتدي ثيابها الناعمة التي كانت ابتاعتها لتناسب جو مصر، دون أي شيء ما عدا شال حول كتفيها يحميها من برودة نسائم البحر.

ولوّحت الشمس بشرة الماركيز الذي أصبح لا يغادر سطح المركب طوال ساعات النهار.

ولم يكن هو قد ذكر شيئاً عن تركها له عند وصولهم إلى الجزائر، ومع ذلك فقد كان توجسها يزداد كلما اقتربوا من مينائها، ما جعلها تتمنى بحرارة لكي لا يرغموها على النزول ومتابعة السفر بمفردها.

وكانت تعترف لنفسها بقولها: «إني أحبه... آه، أنا أحبه.»

ومع هذا، خوفاً من أنه ربما يلاحظ شعورها نحوه، أرغمت نفسها على متابعة النقاش معه وبصورة أكثر عدوانية من المعتاد، حتى انها كانت تتركه غالباً بمفرده حتى ولو كان لها عذر للبقاء.

كانت أثناء أحاديثهما اليومية حول مائدة الطعام تكتشف المزيد عن شخصيته، ما جعلها تدرك مقدار اختلافه عن أي رجل عرفته.

كانت تدرك طبعاً أنه لم يكن من المتوقع منها مقارنته بالفتيان الذين تعرفهم، سعة اطلاع وحكمة. أما الأكبر سناً فيهم، مثل اللورد سترود، فهم لم يكونوا يملكون لا جاذبية الماركيز ولا شخصيته التي جعلته يبرز في كل مجتمع وبلد.

لقد اهتم بوالدها وعمله إلى حد بالغ. وقد أخبرته عن الكثير من اكتشافات أبيها في مختلف البلدان. كما أنها شرحت له سبب ذهابه إلى مصر.

وسألها الماركيز: «من هو ذلك الرجل الذي كان والدك يجتمع به؟»

«إنه رجل فرنسي اسمه أوغست مارييت. وكان أبي قد تعرف إليه أثناء وجوده في القسم المصري في متحف اللوفر. وقد كانت دارت بينهما أحاديث طويلة.»

وسكتت لحظة عادت تقول بعدها:

«إنه أصغر من أبي كثيراً، ولهذا كانت صداقتهما غريبة نوعاً ما. إني على كل حال، أعتقد بأن السيد مارييت هو

رجل بالغ الذكاء، في حين كان أبي غالباً ما يقول إن أكثر الرجال الذين يعملون في المتاحف يصبحون بمثل كسل وعفونة القطع الاثرية التي يتداولونها.»

فضحك الماركيز قائلاً: «تابعي قصتك.»

«ومنذ أكثر من عام، كتب السيد مارييت إلى أبي ولم يكن أبي قد عرف حتى ذلك الحين بأنه ترك فرنسا في ارسالية من متحف اللوفر إلى مصر لابتياع مخطوطات قبطية. لقد قال إنه رأى في مصر كيف أن كنوزها نهبت وكان أكثر اهتماماً بالقيام بعمل يحد من هذا الأمر الشائن، منه بمساومة تجار الآثار.»

«وماذا قال أبوك بهذا الشأن؟»

«لقد كان أبي قال منذ مدة طويلة ان من المعيب أن تجهل بلدان كثيرة قيمة ما تملك، خصوصاً مصر.»

فقال الماركيز: «لقد سبق وسمعت هذا من قبل.»

«لقد كان أبي ينتابه الغضب الشديد من علماء الآثار والحفارين الذين يبدو أن الرغبة في جمع الآثار تكتسحهم. لقد نهبوا، في الواقع الابنية الاثرية والمقابر والمعابد وهربوا بها.»

فقال الماركيز: «إني أعترف أن ذلك كان لصوصية على نطاق واسع.»

فقالت: «هذا هو الأمر بالضبط. وقد أوضح البروفيسور مارييت أنه ما لم يكن هناك نوع من المحافظة على الكنوز التي عثر عليها في مصر، فإن مستقبل علماء الآثار في البلاد هو في خطر شديد.»

فسألها: «وما الذي اكتشفه؟»

«لقد أخبر أبي بأنه لم يمض في مصر وقتاً طويلاً حتى لاحظ أكثر الاشياء أهمية. منحوتات حجرية مشابهة لأبي الهول كانت معروضة في حدائق خاصة لاثرياء مصريين يعملون في وظائف الدولة، وأمام المعابد الاكثر حداثة في الاسكندرية، والقاهرة والجيزة.»

«ما دامت كلها متشابهة، فهذا يعني أنها لا بد جاءت من نفس المصدر.»

«هذا هو ظن البروفيسور ماربيت بالضبط. وذات يوم، بينما كان يسير بين أطلال «سقارة»، وهي مدينة قرب القاهرة، رأى نحتاً لأبي الهول مدفوناً بأجمعه ما عدا الرأس، وذلك في الرمال قرب الهرم الكبير.»

فقال الماركيز: «لا بد أنه ميّز التشابه بين منحوتة أبو الهول هذا وتلك التي كان رآها في القاهرة والاسكندرية.»

فأجابت: «نعم. وهكذا حفر حوله حتى أظهره ليجد عليه نقوشاً كتابية تنسبه إلى آبيس وهو عجل ممفيس. عند ذلك علم أنه اكتشف شيئاً في غاية الاهمية.»

وبدا في صوتها رنة الظفر ما جعل الماركيز يشعر هو أيضاً بالاثارة وهو يسأل:

«وماذا كان ذلك؟»

«إن البروفيسور ماربيت أدرك أنه عثر على مكان أبو الهول الضائع والذي كان معروفاً بأنه موجود ولكنه إلى ذلك الحين لم يكن قد عثر عليه بعد.»

«ما الذي حدث؟»

«لقد استأجر عدة شبان وزودهم بالمجاريف وجعلهم يحفرون. لقد أخرجوا مائة وأربعين منحوتة لأبي الهول.»

فقال الماركيز: «يمكنني أن أتصور مقدار السعادة التي شعر بها عند ذاك.»

«عند ذلك جلس وكتب رسالة إلى أبي. لقد كان يقوم بكل شيء وحده، وأظنه شعر بأنه بحاجة إلى عالم آثار ذي شهرة عالمية وبمرتبة بروفيسور وذلك لكي يسانده وبعد، كما قال في رسالته، فهو ذاهب إلى القاهرة لشراء مخطوطات فقط.»

«وهكذا ذهب أبوك.»

فأجابت: «لقد كان متلهفاً للذهاب. وخصوصاً عندما فكر البروفيسور ماربيت بأنه سيعثر على مدافن العجول كما سبق وعثر على مكان منحوتات أبو الهول.»

فسألها: «وهل تعتقدين حقاً أن البروفيسور ماربيت قد عثر على مدفن العجول؟ أظن هناك مقبرة للهررة، وأخرى لحيوانات وحيدي القرن ولكن، حسبما أعلم، لم يعثروا قط على مدافن العجول.»

فقالت: «هذا صحيح. من الممكن أن يكون مخطئاً بالطبع، ولكن أبي أخبرني قبل سفره بأنه واثق من أن قبور العجول لا بد أن تكون في مكان ما قرب مجموعة أبي الهول.»

فهتف الماركيز: «إنه شيء أريد حقاً أن أراه.»

والتقت عيناه بعيني شيكارا، فرأى فيهما سؤالاً.

وقال بأسف: «لا بأس. إنك انتصرت. إني أعترف بأنك أثرت الفضول في نفسي. سآخذك إلى القاهرة.»

فهتفت شيكارا بسرور خالص: «هل هذا صحيح؟ هل تعني ذلك حقاً؟»

فأجاب: «أظن ذلك. إنني أعرف أن مجرد السماح لإمرأة

بأن تجعلني أغير خططي، هو ضعف بالغ مني. أظنك ستشعرين ببالغ السرور لكونك انتصرت عليّ.»

فقالت بسرعة: «إن سروري سببه ما أشعر به من الشكر نحوك. فقد كنت أفكر في الخوف الذي سيمتلكني عندما أرى نفسي وحيدة ومن احتمال أن لا أعثر على أبي في أول وصولي إلى القاهرة. ولكن، بما أنك الآن ستأخذني إلى هناك، فقد بدا كل شيء رائعاً... رائعاً حقاً.»

وكان في صوتها من البهجة والفرح ما جعل الماركيز يشعر وكأنه قدم إلى طفل هدية.

ولكن عندما تركته شيكارا وأصبح بمفرده، شعر بشبه ندم لاندفاعه هذا الذي جعله يقول إنه سيأخذها إلى المكان الذي تقصده.

ولكنه أخذ يفكر محاولاً إقناع نفسه بصواب ما فعل، إنني على الأقل، لم أحمّل ضميري مسؤولية ما قد يصيبها إذا تخليت عنها. ثم إنني مهتم حقاً برؤية العجول.

* * *

وعندما أصبحت شيكارا في قمرتها، بدأت تشكر حظها ليس فقط لأن الماركيز سيأخذها إلى القاهرة، وإنما أيضاً لأنها ستبقى معه.

ولكنها لم تشأ أن تخبره بمقدار خوفها من أن يجدا، عند وصولهما إلى القاهرة، أن أباها قد سبق وترك القاهرة إلى مكان آخر، وأن البروفيسور مارييت قد يكون عاد إلى فرنسا.

لقد كانت تعلم جيداً مقدار ما يمتلك علماء الآثار من

شرور، وما يعنيه الوقت بالنسبة إليهم، وكيف أنهم لا يهتمون بغير عملهم.

وفكرت في أنه من المحتمل تماماً أن يكونا، أبوها وذلك الرجل الفرنسي، موجودين في مجاهل الصحراء ينقبان عن مدينة مدفونة كان البعض قد أخبرهم بأمرها، وذلك دون أن يخطر لأيّ منهما بأن يخبرا أي إنسان بمكان وجهتهما، وعلى الأخص الكتابة إلى أهلهما في الوطن عما أثار اهتمامهما.

وفكرت في مبلغ الغموض الذي كان يكتنف أباها بشكل لا سبيل إلى اصلاحه.

ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله ينقطع عن الاتصال بها طوال تلك الشهور.

وقالت تحدث نفسها، ربما سلوك أبي هذا نحو أمي هو من جملة الاسباب التي جعلتني أكره الرجال.

كانت السعادة تكتنفهم عندما كانوا يجتمعون، ولكن رغبات أبيها كانت هي التي عليهما، هي وأمها، أن يوافقا عليها، ولم تكن أمها تقبل القيام بأي شيء لا يسمح هو به.

عندما يكون مسافراً أو يريد أن يذهب إلى حيث يوجد بعض الاطلال، للتنقيب عن مدينة مدفونة في مكان مجهول، كان يذهب دون أي تفكير منه في ما ستشعر به أمها من وحدة أثناء غيابه.

والأكثر من ذلك أنه لم يكن يهتم بأن يوفر لهما صحبة إحدى قريباتهما أثناء غيابه.

لقد كانت قالت لأمها مرة: «أظن أبي أنانياً جداً.»

ولكن أمها لم تزد على أنها ابتسمت، ثم قالت ضاحكة: «وأيّ رجل ليس كذلك؟ إن الرجال يحكمون العالم، يا

شيكارا. وكلما أسرعت بإدراك هذا الواقع، كان ذلك أفضل. فالمرأة هي في المكان الثاني في حياة الرجل بعد عمله أو اهتماماته.»

ولم يعطها الرجال الذين عرفتهم، فكرة غير تلك، فقد كانوا جميعاً أنانيين لا يفكرون في غير أنفسهم، كما كان عمها يمثل لها كل ما تشمئز منه وتزدري في الرجال.

لقد كان كل من في بيته يخاف منه. ولم تر منه قط أي عمل حسن إذا لم يكن ذلك لمصلحته، أو حتى التلفظ بكلمة رقيقة إذا ما وجد خطأ ما.

وحدثت نفسها بأن لا غرابة، إذن إذا هي فوجئت بشخص كالماركيز.

فهي لم تغفل عن الرقة الدائمة التي كان يتحدث بها إلى خدمه، ولا عن اهتمامه بأماكن نوم بحارته بنفس الدقة والعناية التي أولاها للقمرات المخصصة له ولضيوفه.

وفكرت، وهي تتذكر معاملته لها، في مقدار رقته وكرمه واهتمامه بمشاعر الغير.

ولكنها ما لبثت أن تذكرت كراهيته للنساء، ما جعلها تشعر يائسة بأنه لن يشعر نحوها أبداً بغير التسامح وربما التسلية بالحديث معها.

ولأنها كانت واقعة في الحب، فقد بدا لها الزمن وكأنه يقترب بسرعة نحو اللحظة التي ليس منها مناص، وهي أن يخبرها الماركيز، بعد أن يصلا إلى القاهرة وينتهيا من رؤية مدافن العجول بأنه سيعود إلى انكلترا وأنها لن تراه بعد ذلك.

تمنت وقد تملكها اليأس، لو أنها لم تعرفه قط.

ولكن، لأنها كانت واقعة في الحب، فقد ازداد بريق

عينيها وأصبحت أجمل من أي وقت مضى في حياتها.

وكان هاينت قد وضع لها كرسياً مريحاً على متن المركب في مكان يحميها من الرياح وأشعة الشمس الحارقة. وأثناء جلوسها أحياناً هناك وقد استغرقت في قراءة كتاب، كان يتملكها السرور عندما ترى الماركيز متجهاً نحوها ليقف بجانبها. وإذ أصبحت تدرك الآن اهتمامه بأساطير مصر القديمة، أخذت تحدثه عما كان أبوها قد حدثها عن بعضها.

قالت: «لشدّ ما أنا متلهفة لرؤية الاسكندرية.»

«لماذا الاسكندرية بالتحديد؟»

«بصراحة، ولانني امرأة، أظن السبب هو أنه يوجد في الاسكندرية قصر كليوباترا وكذلك في مكان ما، قبرها وقبر أنطونيو.»

فقال الماركيز: «لقد نسيت هذا. فقد كان اهتمامي هو بأنها كانت مدينة الاسكندر الكبير، وأن في جزيرة الفراعنة توجد المنارة الشهيرة والتي هي إحدى عجائب الدنيا السبع.»

فقالت: «إني أحب أن أتذكر أن مينيلوس قد أحضر إلى مصر، زوجته الجميلة هيلين وذلك بعد سقوط طروادة، ليعودا بعد ذلك إلى سبارطا حاملين معهما الهدايا والتذكارات الثمينة.»

فابتسم الماركيز قائلاً: «يبدو أن لدينا الكثير مما سنتحدث عنه عند وصولنا إلى مصر. إذ بينما تكونين أنت تبحثين عن القصور والحلي الثمينة، أكون أنا غارقاً في التفكير في منارة الاسكندرية الشهيرة والنور الذي كان يتألق باستمرار من خلال حجر شفاف.»

فسألته شيكارا: «وماذا حدث للمنارة؟ لا أتذكر أنني سمعت مرة عن السبب الذي جعلها لم تعد موجودة الآن.»

فقال الماركيز: «ما حدث هو أن جاسوساً يعمل في خدمة أمبراطور أخذ يقنع الخليفة أن البنائين قد دفنوا كنزاً عظيماً تحت المنارة تلك.»

فصرخت شيكارا: «وهكذا كان الطمع شديداً.»

فقال الماركيز: «تماماً. لقد أخذوا يحفرون للتنقيب وإذا بالمصباح الضخم يسقط وينهار البناء دون أن يستطيع الخليفة أو عماله إعادته إلى مكانه مرة أخرى.»

فقالت بأسى: «كم هذا محزن. إذن فقد هدمها الطمع.»

فقال: «نعم تماماً كالطمع الذي حرمنا، حسب قول صديق أبيك البروفيسور مارييت، حرمنا من الكنوز التي تصر مصر على الاحتفاظ بها مدفونة تحت الرمال بينما بإمكانها أن تفيد العالم أجمع.»

«إنك تجعلني أتوق إلى أن أكافح كما يفعل أبي وذلك لصيانة الماضي.»

فأجاب يستفزها: «إنك بصفتك مجرد امرأة، أظن أن عليك فقط الاهتمام بمستقبلك.»

الفصل الخامس

قالت شيكارا: «لا أستطيع التصديق بأنني هنا حقاً.»

فسألها: «هل كنت في شك فيما صممت عليه؟»

فابتسمت له وقالت: «كلا في الحقيقة، إذ كان عليّ أن أصل إلى أبي بأي طريقة. ولكنني لم أكن أصدق أنك قصدت حقاً الإبحار إلى النيل في يختك.»

كانت كلما ازدادوا اقتراباً من الاسكندرية، تزداد بهجة وسعادة. وعندما اقتربوا من مصر، أخذ اليخت يسير اميالاً في مياه النيل المحمرة بتأثير الوحول المترسبة.

ومالبثت أن ظهرت عند الأفق معالم الميناء، ثم قبة قصر الخديوي، ثم الميناء بأكمله.

وتوقف اليخت عند شاطىء الاسكندرية ليستقبلهم الشحاذون والباعة المتجولون الذين يقومون بحيل عجيبة.

وكانت شيكارا والماركيز متلهفين للإسراع إلى القاهرة. وسرعان ما تركا خلفهم الاسكندرية مبحرين في النهر الواسع ذي الضفاف التي ترتفع حوالي العشرين قدماً فوق الحقول.

لقد خلب لبها كل شيء وقعت نظراتها عليه، حقول قصب السكر الممتدة بلا نهاية، الأرض بترابها الاحمر اللون، وبساتين النخيل والموز، ورأت في الحقول الفلاح منحنياً على فأسه مستعملاً نفس الأدوات الزراعية التي أراها إياها أبوها في المتحف والتي يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة.

أو آخر يسير خلف محراث يجره ثوران أسودان أو جمل، وكان المحراث، كما كانت شيكارا تعلم، كان بالضبط مثل تلك الرسوم التي ستراها مرسومة على المدافن.

وبالرغم من أن أول قطار كان قد افتتح حديثاً بين القاهرة والاسكندرية، فما زال النيل يمثل وسيلة هامة للانتقال.

وعلى ضفاف النهر، كانت قوافل الجمال تمر، والحمير تنوء بأحمالها وهي تسير ببطء على التراب الأسود، بينما الرجال كانوا يستسقون من مياه النيل بنفس الطريقة البدائية التي عرفها البشر منذ الأزمنة الماضية.

وأثناء الرحلة، كان الماركيز وشيكارا لا ينفكان عن الحديث عن تاريخ مصر، حيث وجدت هي أن الماركيز كان شديد الاهتمام بحملة نابوليون سنة ١٧٩٧ على مصر.

قال لها: «هل تعلمين أنه أبحر في أسطول مكون من ٣٦٨ سفينة تحمل ٣٨٠٠٠ رجل على ظهرها وهذه القوة تماثل جيش الاسكندر تقريباً؟»

فصرخت فيه: «إني اكره نابوليون، فهو نموذج الرجل الذي لا يريد سوى الغزو غير مكترث لما ينشره حوله من قسوة وآلام للآخرين.»

«ولكن عليك أن تعترفي بأنه كان جندياً متفوقاً.»

فأجابت: «أنا لا اعترف بشيء. فقد كان متفوقاً في عدم مبالاته بعدد الرجال الذين ماتوا أثناء حملاته. لقد كان هجوم نلسن على أسطوله شيئاً رائعاً عادلاً. كما أن كثيرين من الجنود الفرنسيين قد اصابهم العمى من أمراض العيون في مصر.»

«إنك في اعماقك مصاصة دماء صغيرة.»

فقالت عابسة: «إني أحب الرجال الذين يبنون العالم لا الذين يهدمونه.»

لقد ضحك منها عند ذاك، ولكنهما عندما ذهبا إلى متن المركب بعد العشاء للتمتع بمنظر الليل المتألق بالنجوم المنتشرة، عند ذلك وقفا، هما الاثنين، مسمرين وقد اذهلهما غموض وجمال الليل المصري، لم يكن يوجد في مصر شفق عند الغروب. وإنما صمت وسكون وترقب. ولكن سرعان ما بزغ أول نجم فوق الرؤوس، لينشر الظلام، على الأثر، بجناحين يحتوي بهما العالم، إنها تفهم الآن ما كان اخبرها به أبوها من أن العمال المصريين كانوا يخافون الظلام.

ولكن عندما بزغت النجوم، وبدا الهلال، غمر الأنحاء ضوء جديد فضي غامض، فأصبح النيل كالفضة الذائبة مما جعل شيكارا تنصت إلى ذلك السكون السابغ وكأنه يحدثها.

كانت ترتدي أحد الأثواب الجديدة التي كانت ابتاعتها في لشبونة، وكان قد خيل إليها، وهي تدخل الصالون لتناول العشاء، أنها ترى بريق اعجاب في عيني الماركيز، ولكنها لم تكن واثقة من ذلك، كانت متلهفة إلى اعجابه بها، ولكنها كانت تشعر بأنها لا يمكن أن تنافس جمال السنيورا. ولكن، بالرغم مما كانت السنيورا تتحلى به، فقد تعمد الماركيز ترك لشبونة بسرعة اكبر مما تدعو إليه الحاجة.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن كل ذلك راجع إلى

كراهية الماركيز للنساء، كل النساء، وأن ذلك بالطبع يشملها هي، وعندما جاء ليقف بجانبها على متن المركب، اخذ قلبها يخفق لاحساسها بقربه.

سألها: «ما الذي تفتشين عنه؟»

فنظرت إليه بدهشة إذ لم تكن تتوقع أن يكون من الفطنة بحيث يدرك بأن جزءاً منها يتجه نحو مصر، شاعرة بأنها تحتوي على شيء خاص بها، ولأنها لم تستطع التعبير عن مشاعرها تلك، بالكلمات. قالت: «إني احاول أن أتخيل مركب كليوباترا وهو يتهادى على هذه المياه نفسها في طريقها إلى لقاء انطونيو. أحب التفكير في تلك المراكب المذهبة المعطرة، الهدايا التي حملتها إليه.»

فقال ساخراً: «وطبعاً، كان انطونيو مسروراً بكل ما قدمته إليه.»

فقالت بصوت خافت: «لقد أغرم الواحد منهما بالآخر، لقد كان جاء لغزو مصر، ولكن كليوباترا غزت افكاره.»

فقال بشيء من الحدة: «على العكس، فهي التي غزيت، لقد أحبته، وما لم تكن الكتب التي قرأتها مخطئة، فقد كان دوماً سيدها، لقد أحبته، في الواقع، اكثر مما أحبها.»

فقالت تجادله بعنف تقريباً: «لكنهما كانا سعيدين، سعيدين جداً.»

فأجاب: «لِمَ لا؟ فقد كانت امرأة جميلة للغاية.»

وساد صمت قالت شيكارا بعده بصوت خافت: «هل جمال المرأة هو كل ما... يطلبه الرجل؟»

فتردد الماركيز لحظة، ثم قال أخيراً: «إذا كنت تريدين

مني الصراحة، فرأيي هو أن الرجل يطلب اكثر من ذلك بكثير، رغم أنه شيء نادر وقد لا يعثر عليه أبداً.»

فسألته: «وما الذي يطلبه؟»

وكانت نظرات الماركيز تخترق أعماق الظلام، وعلى ضوء النجوم كان جانب وجهه يبدو لها واضحاً، كانت تعلم أنهما يتحدثان الآن بشكل لم يعرفاه من قبل، لم يكن يبدو عليه السخرية أو التهكم، كما أنه لم يكن يغيظها أو يستفزها.

كان يخبرها بما يشعر به بالضبط، وحبست أنفاسها خوفاً من أن تقوم بأي شيء قد يعكر سلسلة أفكاره.

قال الماركيز ببطء: «أظن أن كل رجل، إذا كان صادقاً، لديه مثل أعلى للمرأة التي لا يتمنى حبها فقط، بل الزواج منها أيضاً.»

فسألته وهي تهمس بالكلمات بصعوبة: «وما هي صفات... تلك المرأة؟»

فأجاب: «إنك سألتني عما إذا كان الرجل لا يطلب في المرأة سوى الجمال، ولكنني أعتقد أن الرجل إذا وقع في الحب، فالمرأة التي أعجب بها تبدو له دوماً رائعة الجمال. ولكن جمال الوجه ليس له أية أهمية كبرى.»

وسكت لحظة قبل أن يتابع قائلاً: «بل هناك شيء أكثر عمقاً... شيء ينبع من النفس أو حتى من الاحساس.»

وساد الصمت مرة أخرى، وعندما لم تتكلم شيكارا، مضى يقول: «إنني لا أدعي بأنني خبير كبير مثل أبيك في المعتقدات القديمة، ولكن مما قرأته، كان الناس في الماضي يبحثون دوماً عن شيء أعظم... شيء هو وراء

انفسهم... شيء يحسونه ولكنهم لا يستطيعون وصفه بالكلمات.»

وأصبح صوته اكثر عمقاً. «ولهذا وجد الرسم، الموسيقى والنحت... إنه للتعبير عما يعتمل في نفس الرجل بشكل أفضل مما يستطيع التعبير عنه بالكلمات.»

فسألته: «وهل هذا... ما تبحث عنه؟»

فلم يجب، وبعد لحظة عادت تقول: «أظنني أفهم، وهو مخيف إلى حد ما لأن ما هو خارج أنفسنا هو اكبر وأقوى منا.»

وتنهدت وهي تتابع: «إن ذلك يجعلني أشعر بأنني صغيرة جداً و... غير ذات أهمية، ومع هذا فإنني أريد أن أكون... جزءاً منه.»

فأجاب الماركيز: «ليس ثمة شخص غير مهم في نظر نفسه، وأظننا جميعاً مهمين جداً في هذا الكون.»

فسألته: «ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟ كيف يمكنني أن أعلم أنني لست غير ذات شأن إطلاقاً وأنني، إذا ما واراني ظلام الليل ولم اعد إلى الظهور مطلقاً، فأنا لن أخلف أي تأثير في العالم؟ كما أن لا أحد سيهتم لما قد يكون حدث لي.»

فابتسم الماركيز للحرارة التي بدت وراء كلماتها هذه واستدار ينظر إليها.

قال: «انك على غير طبيعتك هذا المساء، إذ يبدو عليك التواضع الشديد.»

فقالت: «أخشى أنني، وإن كنت غير معرضة لأخطار جسمانية أنني أدع حياتي تتسرب مني دون أن أشعر

بأنني حية، ودون معرفة بتلك الأشياء الكائنة وراء نفسي.»

كان صوتها يرتجف في الظلام، ثم عادت تقول: «إنني مثلك، وربما مثل أي شخص آخر، أبحث عن... مثل أعلى. وإذا لم أجده فمعنى هذا انني فاشلة تماماً.»

«أظنك تعثرين دوماً على ما تبحثين عنه.»

كان صوت الماركيز مطمئناً للغاية ما جعلها ترفع بصرها إليه، فتشعر بأنها من الصعب أن تشعر بخوف من أي شيء ما دام هو بقربها.

قال بصوت خافت جداً: «انك حلوة جداً، يا شيكارا. وأنا أتمنى لك السعادة.»

فارتجفت للطريقة التي نطق بها بكلماته هذه، وما أن نظرت إليه ونظر إليها، حتى شعرت بمغناطيسية تنساب بينهما.

كان شيئاً لم تستطع أن تفسره، ولكنه كان موجوداً، يخفق في الجو بينهما، ما جعل من الصعب عليها الحركة.

ران عليهما الصمت والجمود لحظة طويلة، لا يصدر اي صوت سوى خرير ماء النيل الذي كان ينساب تحتهما ببطء.

كان هذا هو الحب. كان هذا هو السر الخفي التي كانت تبحث عنه في الظلمة، كان هو الجواب لكل ذلك الحنين الذي كان يتملكها ويملأ قلبها بالشوق.

لم يكن لديها فكرة عن الوقت الذي مضى عليهما بهذا الوضع. كل ما كانت تعرفه أنها لم تعد تشعر بحركة المركب، ولا وميض المياه، ولا النجوم فوقهما ولا الظلام الذي يلف الكون.

وبينما كانت هي غير قادرة على الحراك أو الكلام، كان هو يتأمل وجهها وكأنه، كما بدا لها، يبحث في قسماته عن شيء ما.

وفجأة، ودون ان ينطق بكلمة، إذا به يستدير وينطلق مبتعداً، تاركاً إياها على سطح المركب وحدها.

* * *

وصلوا إلى القاهرة في الصباح التالي، فجنحوا إلى الشاطىء.

ونظرت شيكارا إلى الخارج من كوّة قمرتها، وكانت هناك مراكب راسية غير بعيداً عنهم قد تعالت صواريها وقد طويت أشرعتها. بينما كانت مراكب أخرى تتهادى فوق المياه محملة بقصب السكر والحبوب والأرز والبن.

طالما شعرت بالشوق إلى هذه اللحظة لحظة الوصول إلى القاهرة، ولكن ها هي ذي الآن تجد من الصعب أن تفكر في أي شيء سوى الماركيز والحديث الذي جرى بينهما الليلة الماضية.

وأخذت تهمس لنفسها: «أنا أحبه... أحبه... أحبه.»

ولكنها عندما ذهبت إلى الفراش دون أن تراه، حدثت نفسها بأن حديثه ذاك لها لم يكن يعني شيئاً أكثر مما كان يعنيه حديثه للسنيورا.

لقد عادت تحدث نفسها قائلة إنه يكره النساء وأنها ليست سوى امرأة قد تبعث التسلية في نفسه حالياً.

وحدثت نفسها وقد غمرتها التعاسة، ولكنني أحبه، أحبه إلى درجة أقبل بأن أفعل كل ما يطلبه مني. ولكنها كانت

تعلم أنه لن يطلب منها شيئاً وهي التي تعتبر في حمايته والتي ليس لديها سواه تطلب منه العون.

حتى رغم أنها كانت تعلل نفسها بالتفكير في أن الماركيز، حين تجد أباها، فقد كانت تدرك أن ذلك ليس إلا حلماً أحمق لفتاة مغرمة، وليس له أية صلة بالواقع.

كان الوقت مازال باكراً جداً عند الصباح، ولكن شيكارا ارتدت ملابسها وصعدت إلى سطح المركب لتمتع نفسها بالنظر إلى السفن في النهر، والناس السائرين في الطريق المتاخم للمرسى.

استطاعت أن ترى الجامع والمآذن المرتفعة فوق أسطح المباني في الجانب الآخر للماء، فأدركت أن أجمل الأشياء منظراً هو جامع محمد علي الذي ترتفع مآذنه التركية الطراز فوق كل شيء آخر في القاهرة.

سمعت خطوات ظنت أنها قد تكون للماركيز، ولكن تبين لها أنها لأحد الخدم. قال باحترام: «صباح الخير يا آنسة، لقد أخذت صينية إفطارك إلى غرفتك.»

فقالت له: «أشكرك.»

ونزلت إلى غرفتها، ولم تشأ أن تسأله إن كان الماركيز قد تناول إفطاره.

وعندما أنهت قهوتها وتناولت الخبز الطازج، أخذت تتساءل عما إذا كان عليها أن تبحث عن الماركيز أم تسأل هاينت عن خطتهم لهذا اليوم، وإذا بهاينت يأتي إليها قائلاً: «تحيات سيادة الماركيز يا آنسة، وإذا كنت جاهزة للنزول إلى الشاطىء فهو في انتظارك.»

فأجابت: «إنني متلهفة إلى ذلك.»

وقفزت من مكانها ثم تناولت قبعتها العريضة الحوافي التي كانت اشترتها في لشبونة، فوضعتها على رأسها، ثم حملت مظلتها البيضاء التي كانت قد ابتاعتها نزولاً عند رأي الماركيز.

قال هاينت: «من الأفضل دوماً في الجو الحار، أن يبكر المرء في الاستيقاظ من النوم. وأظن سيادته ينوي أن يأخذك إلى الأهرام.»

فقالت بلهفة: «إنه المكان الذي أرغب في رؤيته.»

واندفعت خارجة من قمرتها صاعدة إلى السطح بعد أن حملت حقيبة يدها البيضاء التي يتناسب لونها ولون ثوبها، وابتسمت لحظة وقع بصرها على الماركيز واقفاً ينتظرها، بينما كان ينتظرهما على الشاطىء عربة بحصانين، بادرها الماركيز بقوله: «رأيت أن علينا أن لا نضيع الوقت بل نذهب في الحال للبحث عن البروفيسور ماريبت ثم نسأله عما حدث لأبيك.»

فأجابت: «وهذا ما أنا متلهفة لمعرفته.»

حاولت أن تقرأ ما يرتسم على ملامحه من تعبير، ولكنه بدا كأنه يتعمد عدم النظر إليها.

كان يبدو عليه نوع من التحفظ وكأن الحواجز التي كانت بينهما ذات يوم، قد عادت مرة أخرى، دخلت إلى العربة وهي تحاول أن تفكر في مقدار ما تشعر به من بهجة وهي تأمل في العثور على أبيها بعد كل تلك الشهور من الصمت.

ولكنها، بدلاً من ذلك، كانت مشاعرها منحصرة في الماركيز وأناقته البادية بينما في نفس الوقت، كانت خائفة من أن يكون نادماً على ذلك التصرف الذي بدر منه الليلة

الماضية، سار خلال الشوارع المزدحمة بالحمير، والعربات، وعربات اليد، والجمال، والثيران.

ومن الحوانيت، تصاعدت روائح المسك وعطور الورد والبخور والقهوة، وسرعان ما خلفا وراءهما المدينة ونساءها المحجبات متجهين نحو الأهرام.

وبعد أن قطعا شطراً من الطريق صامتين، قال الماركيز: «لقد قمت ببعض الاستعلامات فعلمت أن البروفيسور ماريبت هو موجود حالياً في موقع الحفريات.»

فسألته: «إنه هنا إذن؟ كنت خائفة من أن يكون قد عاد إلى فرنسا.»

فقال: «لقد خطر لي ذلك أنا أيضاً مما يفسر عدم رده على رسالتك.»

فقالت يحدوها الأمل: «قد يكون أبي معه.»

فلم يجب الماركيز، وساورها إحساس بأن ذلك غير محتمل.

كان الحصانان يجران العربة مسرعين، فما لبثت الأهرامات أن ظهرت لهما قائمة في صحراء من الرمال، ومع أن شيكارا تاقت إلى الوقوف لزيارتها، فقد أدركت أن الماركيز كان على حق عندما قال إن أول ما عليهما القيام به عند وصولهما إلى مصر، هو البحث عن أبيها، وكان هناك سؤال ما انفك يلح عليها رغم محاولتها نفيه من ذهنها، ألا وهو «إذا كان أبي موجوداً، فإلى متى يمكث الماركيز بعد أن يسلمني إليه؟» ورمقته بنظرة جانبية يشوبها الخجل، وإذ رآه صامتاً، لاذت بالصمت هي الأخرى.

تجاوزا الهرم الأول، وإذ ذاك، لاح لهما هرم زوسر

و أشجار النخيل التي تحيط بالبناء الذي قال لها الماركيز عنه أنه معبد «بتاح»، وفي كل مكان، كان هناك أحجار وكتل من الرخام و الصخور.

وعندما نزلا من العربة، أخذت شيكارا تفكر في استحالة إعادة صنع أي شيء من هذا الخليط من الصخور و الرمال. كان الماركيز يسير أمامها عندما رأت إلى اليسار منهما الطريق إلى هرم أبي الهول.

لقد كان هذا المكان بجد حيث حقق البروفيسور مارييت اكتشافه الرائع منذ عامين، فوقفت مسلوبة اللب.

كان الطريق يمتد حوالي الستمائة ياردة ثم ينعطف إلى اليسار حيث يقود إلى معبد صغير امام مجموعة لا بأس بها من المنحوتات قامت في نصف دائرة.

سارا متجهين نحوها، وعندما شاهدا بعض العمال، سألهم الماركيز عن البروفيسور مارييت، فأشاروا إلى طريق منحدر نزل الماركيز وشيكارا فيه حيث تناهى إلى مسامعهما أصوات كلام وحفر آتية من آخر غرفة مستطيلة.

«هل البروفيسور مارييت هنا؟» ألقى الماركيز بهذا السؤال فرجع إليهما صدى صوته، ومضت لحظة لم يسمعا فيها جواباً، ولكنهما، وهما يسيران في ما علمت شيكارا فيما بعد أنه قاعة مستطيلة تحوي مدافن للعجول شاهدا رجلاً ما لبث ان سألهما بلغة فرنسية: «هل تبحث عني، أيها السيد؟»

فسأله الماركيز: «هل أنت البروفيسور مارييت؟»

«نعم، يا سيدي.»

«إنني الماركيز أوف لينوود، وقد أحضرت اليك، ابنة البروفيسور ريتشارد بارليت القادمة من انكلترا للبحث عن والدها.»

فأطلق البروفيسور مارييت صرخة دهشة، ثم استدار نحو شيكارا ماداً يديه الاثنتين، وهو يهتف: «آنستي، إنني أشعر بأنني أعرفك لكثرة ما تكلم أبوك عنك. إن قدومك إلى هنا لهو شرف كبير لي، وكل ما أتمناه لو كان لدي خبر حسن عن أبيك أخبرك به.»

فسألته بصوت خافت: «هل... مات؟»

«الحقيقة يا آنسة، هي أنني لا أعلم.»

فسألته: «أين هو إذن؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث له؟»

فأجاب: «عليّ أن أوضح شيئاً.»

كان كما قميصه مثنيين إلى أعلى، ولم يكن يضع ربطة عنق، ومع هذا، حتى وثيابه مغطاة بالرمال كان يحيط به هالة من الوقار والسلطة، ما استحق احترام شيكارا.

قال وهو ينظر حوله: «هل لنا بأن نجلس، يا آنسة؟» كان هناك جدار حجري منهار، فجلست شيكارا عليه ولكن الماركيز بقي واقفاً، وجلس البروفيسور مارييت قبالتها، فسألته وقد بدأ صبرها ينفد: «ماذا... حدث؟»

«لقد التحق بي أبوك، كما تعلمين، منذ اكثر من عام، وكان هذا منذ بداية اكتشافي منحوتات أبي الهول، فتولدت لدي فكرة هي أن مدفن العجول لا تبعد كثيراً.»

«هذا ما كنت قلته في رسالتك إلى أبي.»

فقال: «كنت مصيباً في ذلك. ويمكنني، في الواقع، أن أريك مدافن آبيس تحت الأرض، ليس هذا فقط، بل المدافن

التي أنشئت في عهد رعمسيس الثاني التي ما زالت سليمة لم تقتحمها اللصوص.»

فهتفت: «ما أروع هذا، هل كان أبي هنا عندما اكتشفت كل ذلك؟»

«نعم، وكان ذلك في التاسع عشر من شهر آذار (مارس) من السنة الماضية، وقد ابتدأ يضع قائمة بمحتويات النواويس تلك.»

فسألته: «وما الذي كانت تحتويه؟»

فأجاب: «مجموعة عظام وأعضاء حيوانية سيئة الحفظ، ولكن كان هناك أيضاً كمية من الاحجار المنحوتة الصغيرة، والحلي الذهبية وأشياء أخرى لا يمكن تقدير قيمتها.»

فقالت شيكارا: «إذا كان هذا قد حدث في شهر آذار (مارس) الماضي، فلماذا لم يكتب إليّ أبي كما اعتاد دوماً أن يفعل؟»

فأجاب: «أنا واثق من أنه كان ينوي القيام بذلك، ولكن الإثارة كانت تتملك أباك بقدر ما كانت تتملكني للعثور على مدافن العجول وقد كان من المستحيل علينا أن نفكر في أي شيء آخر.»

ولم تتكلم شيكارا، بينما أضاف هو يقول بعطف: «كان هناك تنقيبات كثيرة يجب إجراؤها والتي تتضمن مشاكل ضخمة...»

وأبدى إشارة بيده وهو يتابع قائلاً: «يمكنك أن تري الرمال والأتربة المكدسة في كل مكان، انها تُحدث نوعاً من الغبار الناعم النفاذ، كما كان هناك صخور تتساقط وأحياناً لم نكن نستطيع الإحتفاظ بالفوانيس مشتعلة إلا بصعوبة.»

فقالت: «يمكنني أن أتصور أن أبي قد نسي أمري ولكن، ما الذي حدث له؟»

فجذب البروفيسور مارييت نفساً عميقاً ثم قال: «إنني أجيبك مرة أخرى، بصدق، يا آنسة، وهو انني لا أعلم.»

فكررت قوله بعجب: «لا تعلم؟»

«لقد اختفى.»

«وكيف حدث ذلك؟»

«كان يقيم بالقرب من هذا المكان إذ المسكن هنا غير مريح ومن الصغر بحيث لم نكن نستطيع الإقامة فيه معاً.»

فقالت تستحثه: «إستمر في كلامك.»

«وذات صباح، لم يظهر أبوك كما كنت أنتظر، فظننت أنه ربما كان مشغولاً بالكتابة الضرورية، ونويت زيارته ذلك المساء، ولكنني كنت متعباً فارجأت ذلك إلى اليوم التالي، وعندما لم يظهر أيضاً، أرسلت شخصاً لاستطلاع أمره، ولكن الجواب كان أن أصحاب المنزل الذين كان يقيم بينهم، كانوا يظنونه عندي، ولم يزعجني هذا، فقد كان أبوك، كما تعلمين، رجلاً غامضاً مغلقاً فكان يذهب أحياناً إلى القاهرة للاستعلام عن أشياء يريدها أو لشراء بعض الأدوات الخاصة التي تنظف بها الأشياء التي نعثر عليها.»

فقالت: «لا بد أنك شعرت بالعجب عندما طال غيابه.»

فأجاب: «لم يخطر ببالي غرابة غيابه ذاك إلا بعد فترة. ذلك أنه رغم صلتنا العملية الوثيقة، فقد كنا، نحن الإثنين، نفضل التصرف بشؤوننا الخاصة كل منا على انفراد ولم يكن الواحد منا يتدخل بشؤون الآخر قط.»

«هذه هي طباع أبي تماماً.»

فتابع يقول: «ولكنني، في النهاية، أصبحت قلقاً تماماً، لقد وجدت أن أباك قد اختفى حقاً.»

«وكيف كان لهذا أن يحدث؟»

فأجاب: «لا أدري، لقد ذهبت إلى مسكنه فرأيت كل شيء كما كان تركه تماماً، كان هناك رسالة اليك لم ينهها، وعدا ذلك لم يكن ثمة شيء مهم ما عدا الأشياء التي كنا وجدناها في الناووس.»

فسأله الماركيز: «وما هي الإجراءات التي قمتم بها للعثور عليه؟»

لم يكن قد تفوه بكلمة حتى الآن، ما جعل شيكارا والبروفيسور ماريبت يجفلان معاً عندما قاطع حديثهما.

فأجاب الرجل الفرنسي: «لقد سألت كل شخص في هذه الأنحاء عما إذا كان قد شاهده، ولكن الجميع كانوا يعتقدون بأنه ذهب في رحلة إلى الصحراء لاستطلاع نواح أخرى للتنقيب، وفي الواقع، كنا سبق وتحدثنا معاً عن البحث عن مدافن في أبودوس ولكنني لم اصدق أن من الممكن أن يذهب البروفيسور إلى هناك من دوني أو على الأقل دون إخباري عن قصده.»

فاصر عليه الماركيز قائلاً: «ماذا فعلت إذن؟» فبدا الإرتباك على البروفيسور ماريبت، ثم قال بعد لحظة «بصراحة، يا سيدي، أنا لم أعرف ما يجب أن افعل. لقد كنت أعلم أن البروفيسور لم يكن يحب أن تجري استعلامات بشأنه. فأنا لم أكن قد طلبت رخصة رسمية له للإلتحاق بي والحكومة الفرنسية التي كانت قد سمحت لي بمتابعة على

ومنحتني مبلغاً وافراً من المال، تغار جداً من أن يكون لأي دولة أخرى دور في الاكتشافات التي أقوم بها.»

فقال الماركيز: «لقد فهمت، ولكن البروفيسور هو رجل مرموق واختفاؤه لا يمكن أن يبقى سراً.»

فأجاب البروفيسور ماريبت: «أعلم ذلك. وأنا أنوي استخدام مخبر سري أو بعض المسؤولين على الأقل وذلك للتفتيش عنه.»

وأدركت شيكارا، وهو يتحدث، وكذلك الماركيز حسب ما لاحظت، أن البروفيسور ماريبت، في تركيزه على حفرياته، قد ترك الأمور تجري على هواها. قد يكون شعر بالقلق والإنزعاج لاختفاء والدها، ولكن لا شيء هناك يمكن أن يمنعه من الشعور بالبهجة والإثارة لاكتشافاته.

وقال لها: «أرجو أن تقبلي أسفي البالغ لما حدث يا آنسة، وأنا أؤكد لك بأن اعجابي وتقديري لأبيك قد ازداد أضعافاً مضاعفة للعون الكبير الذي قدمه إلي عندما كنا نعمل معاً.»

فأجابت: «أشكرك.»

وقال الماركيز: «إنني أدعوك، يا بروفيسور، للقدوم معنا إلى حيث نتناول الغداء، فكما لا بد تدرك، هذا الخبر هو بمثابة صدمة للآنسة بارليت، كما أنه ما زال هناك كثير من التفاصيل تريد هي أن تجليها وأظن بإمكاننا أن نقوم بهذا هناك براحة اكبر منها هنا في هذا المكان المترب المظلم.»

فأجاب البروفيسور ماريبت: «طبعاً يا سيدي، يسرني أن أقوم بأي شيء تطلبه.» ولكن شعوراً ساور شيكارا بأنه يأسف للساعات التي سيمضيها بعيداً عن حفرياته.

ورغبة منها في إدخال السرور إلى نفسه، سألته إذا كان من الممكن أن يريها بعض اكتشافاته. فالتمعت عيناه، وتجلت الحيوية في صوته وهو يقودها في الممر الذي يمتد أمام مجموعة من الغرف تحتوي على بقايا عجول محنطة. كانت تسود المكان وحشة هي، في رأي شيكارا، كامنة في كل مكان يتصل بالموت والقبور، ولكنها كانت بالغة الاهتمام بما تراه، كما أن الماركيز كان يبدو، هو الآخر، مفتوناً مسلوب اللب. كما كان لأسئلته التي كان يلقيها، ولثقافته الواسعة التي أبداها فيما يتعلق بالعجول، كان لكل ذلك تأثيره العميق في نفسها، وكان البروفيسور ينتقل بهما من مدفن لآخر يريهما النواويس التي كانت تضم رفات العجول. كانت النواويس مصنوعة من حجر الصوان الأسود كل منها مصنوع من قطعة واحدة تزن حوالي اثنين وسبعين طناً وترتفع ثلاثة أمتار، وأثناء خروجهم من الظلام إلى حيث أشعة الشمس، سأل الماركيز: «هل حدث للمكان كثير من السلب والنهب؟»

فأجاب البروفيسور: «لقد وجدت مدفنين لم يمسا. ولكن اللصوص طبعاً، قد أحدثوا تلفاً يتعذر تقديره، ليس بسلبهم المنحوتات الصغيرة فقط، وإنما كذلك بهدمهم للجدران وجعلهم السقوف غير آمنة وذلك في أماكن كثيرة.»

فسأله الماركيز: «هل كانوا لصوصاً عصريين أم قدماء.»

فهز البروفيسور كتفيه وأجاب: «لقد كان هناك لصوص في جميع العصور، إن كرهي لهم يزداد في كل مرة أرى فيها كم أتلفوا من سجلات التاريخ وكم من المعلومات قد ضاعت.»

فقال الماركيز: «إني متفهم لهذا.»

وعندما وصلوا إلى العربة، تركهم البروفيسور مارييت في الانتظار ريثما دخل إلى خيمة صغيرة أقيمت بالقرب من مكان الحفريات والتي يبدو أنه يغير فيها ملابسه.

وبعد فترة قصيرة، عاد إليهم وقد بدا اكثر لياقة ورأته شيكارا انيقاً حقاً.

حسبت مما كان أبوها قد أخبرها به أنه في الحادية والثلاثين من عمره فقط ومع هذا فقد كان مقدار ما أنجزه، بالرغم من معارضة السلطة وخصوصاً وكلاء الخديوي حاكم مصر الذي كان حاول مرة أن يوقف أعمال الحفر ويصادر ما كانوا عثروا عليه، كان مقدار ذلك محيراً تماماً.

قال البروفيسور مارييت بصراحة وهو يروي ما حدث: «لقد كنت أحفر هنا، في الواقع، دون ترخيص وقد توقعت مثل هذه التدخلات، لبعض الوقت.»

فسأله الماركيز: «ولكنك الآن معين بشكل رسمي.»

فأجاب البروفيسور: «أجل، ولكنني دوماً أضع في حسابي زائرين غير مرغوب فيهم والتجار في القاهرة يقومون بسهولة ببيع التحف البرونزية المستخرجة من تحت التراب، وطبعاً كل ما هو مصنوع من الذهب.»

ونظر إلى بعض عماله، ثم أضاف وقد بدا عليه القلق: «لا يمكنني الوثوق بأحد، فالرجال الذين يعملون عندي في الحفريات، يحاولون أن يسرقوا أي شيء صغير الحجم يخرجونه من تحت التراب، عالمين بأن ثمة سوقاً مفتوحاً لهم على الدوام لتسويق ذلك.»

فقالت شيكارا بعطف: «لا بد أن هذا يجعل الأمور صعبة جداً بالنسبة إليك.»

فأجاب: «إن أباك يرى أن هذه السرقات الصغيرة التافهة هي الأسوأ في مصر منها في أي مكان آخر في العالم.»

كان الطعام الذي يتناولونه في استراحة صغيرة قرب الأهرام، لا يبعث على الشهية، لم تكن شيكارا تهتم بما كانت تأكل، ولكنها شعرت بأن الماركيز يبدو مشمئزاً نوعاً ما من الطعام الذي قدم إليه، بينما كان البروفيسور يأكل كل ما وضع أمامه.

لم يعد يبدو الآن، بعد أن خرج من سراديب دفن الموتى، عالم الآثار ذاك، وإنما شاباً فرنسياً متحمساً. وأدركت أنه قد وجدها جذابة، وبدت في عينيه تلك النظرة التي سبق ورأتها من قبل، وكانت تكرهها على الدوام.

ولكن نظراً لاعجابها بالبروفيسور مارييت، ولأنه كان صديقاً لأبيها، وجدت نفسها تستمتع بصحبته وحتى بالكلام الذي كان يوجهه إليها.

قال: «لقد كان أبوك يتحدث عنك كثيراً، يا آنسة. كان يحدثني عن مبلغ جمالك. وأنا الآن أرى أنه لم يكن مبالغاً.»

فابتسمت وهي تقول: «لا استطيع أن أصدق انك، وأبي، كنتما تتحدثان عن أي شيء خارج عن نطاق اكتشافاتكما.»

فقال: «كنا أحياناً في الأمسيات نشعر بحنين إلى أهلنا الذين خلفناهم وراءنا.»

«لقد اعتاد أبي على العيش وحيداً، ولكنك وأنت إبن باريس، لا بد أنك تجد الأمر صعباً جداً.»

فأجاب: «إنني أحب الصحراء، أحبها بكل حرارة، ولكنني أحياناً، يا آنسة، أتوق إلى امرأة مثلك لتكون معي... امرأة تتفهم عملي وتكون لي مشجعة وملهمة.»

وهنا وقف الماركيز دافعاً كرسيه إلى الخلف، ما جعل ذلك يحدث ضوضاء على الأرض الخشبية، وهو يقول بشكل مفاجيء: «أظن ان علينا أن نتحدث عن السبب الرئيسي لزيارتنا، يا شيكارا، وهو أن تعرف ما هي الخطوات التي اتخذت للعثور على أبيك.»

فسألت شيكارا البروفيسور مارييت: «ما الذي بإمكاننا عمله؟»

فأجاب: «إنني صدقاً لا أعلم. يمكنك أن تذهبي إلى المسؤولين ولكنهم لن يهتموا كثيراً، وكما سبق وقلت لك، سيتملكهم الإنزعاج لأن أباك انكليزي، ولهذا فالحكومة الفرنسية غير مسؤولة عنه.»

فقالت: «إن أبي ما كان ليأخذ شيئاً من مصر.»

فقال: «هذا ما أعرفه أنا وأنت يا آنسة، ولكن من الصعب أن تقنعي أحداً من المسؤولين بهذه الحقيقة.»

فقال الماركيز بلهجة جافة: «يبدو أن هذا يجعل مهمتنا في غاية الصعوبة.»

ونادى النادل ليحضر له قائمة الحساب، ثم قال: «أرى يا بروفيسور، أن علينا، أنا والآنسة بارليت أن نعود الآن إلى القاهرة حيث أن الجو يزداد حرارة، وربما نقوم بزيارتك مرة أخرى غداً، وإذا كان لديك فكرة أخرى عما ينبغي عمله، فما يهمنا سماعه جداً.»

هز البروفيسور مارييت رأسه، بينما تابع الماركيز

يقول: «وأنا واثق من أن الآنسة بارليت تريد استلام أمتعة والدها للاحتفاظ بها.»

فقال البروفيسور مارييت: «إنها ليست كثيرة، كما أظن، وقد تركها حيث كان يقيم.»

فقال الماركيز: «على كل حال، قد تكون قد اختفت هي أيضاً.»

فنظرت شيكارا إليه بحيرة.

لقد ساورها شعور بأن الماركيز يتعمد مضايقة البروفيسور مارييت، ولكن لم يكن لديها ما تقوله سوى أن تشكر الرجل الفرنسي بحرارة لكل ما اطلعهما عليه.

فقال هذا: «لقد كان هذا سروراً كبيراً لي.» ولم يكن ثمة شك من لهجته في أنه كان يتكلم بإخلاص، وأضاف بصوت خافت: «يجب أن أراك غداً. وأنا واثق من أنني، إلى ذلك الحين، سأكون قد فكرت في شيء قد يكون فيه عون ما.»

ثم تركهما مبتعداً بطريقة جعلها واثقة من أنه متلهف للعودة إلى حفرياته، قال لها الماركيز وهما في طريق العودة إلى القاهرة: «إنني آسف جداً بالنسبة لأبيك.»

فأجابت: «لا أظن الأمر أسوأ مما كنت أتوقع، فأنا لم يكن لديّ في الحقيقة أمل كبير في أن أجده حياً.»

فسألها: «هل أنت مقتنعة الآن بأنه ميت؟»

«أشعر بأن ليس هناك تفسير آخر، ولكن كيف مات؟ ولماذا؟ وأين؟ هذا ما أريد أن أعرفه.»

وتنهدت ثم تابعت تقول: «ما أن رأيت السراديب حتى أيقنت بأن أبي لا يمكن أن يذهب فجأة تاركاً كل هذا المقدار

من العمل الذي عليه أن يقوم به، فهذا هو نوع الأماكن التي يحبها، وهو سيبقى يعمل إلى أن يرفع الغطاء عن آخر حجر ويسجل.»

فقال الماركيز بهدوء: «إني آسف.»

فتملكتها موجة من الكآبة، لم تكن تفكر في موت أبيها وإنما في أنها أصبحت وحيدة... وحيدة تماماً في هذا العالم، وبدا العالم أمامها مظلماً فارغاً.

الفصل السادس

عند اشتداد حرارة الظهيرة، ارتاحت شيكارا بعد الغداء، ولكنها علمت أن الماركيز غادر اليخت إلى الشاطىء فتساءلت أين تراه ذهب؟

لم تتكلم معه منذ أن كانا معاً في العربة المكشوفة بعد أن تركا الحفريات والبروفيسور ماربيت.

شعرت بأنه غريب المزاج ما جعلها لا تفهمه، وقد أحزنها هذا.

وشعرت بأنها لا تستطيع التفكير في كرهه لها بصفتها امرأة رغم كل ما يتمتع به من لطف وشهامة واعتبار لمشاعر الآخرين.

وعادت تحدث نفسها باكتئاب بأنه ربما ذهب ليتدبر أمر عودتها إلى انكلترا.

كانت واثقة من أنه لن يسمح لها بالبقاء في مصر، والآن بعد أن رأت القاهرة والاسكندرية، أدركت أن فكرتها في البقاء والعثور على عمل هنا، كانت مستحيلة تماماً.

كانت البلاد واسعة جداً، وغريبة جداً، ومختلفة جداً عن نمط الحياة التي عاشتها في وطنها.

كانت قد قامت برحلات عديدة، ولكن ذلك كان مع أمها وأبيها وكان مختلفاً جداً عنها الآن وهي فتاة شابة دون مرافق وفي بلد غريب.

فكرت في أنها قد تسأل البروفيسور ماربيت إن كان

بإمكانها أن تعمل معه، ولكنها كانت تعلم مقدار كراهية علماء الآثار الذين كانت تعرفهم، لتطفل النساء على الأماكن التي يجري العمل فيها.

وكانت شيكارا تفكر في أنهم كانوا يكرهون ذلك حتى عندما كانت هي وأمها تطوفان متفرجات على الأمكنة التي كان أبوها يجري التنقيب فيها.

ولهذا، كانت واثقة تماماً من أن البروفيسور ماربيت رغم إعجابه البادي بها، فهو لا شك سيقصر الاحتفاء بها على الأوقات التي لا يكون مشغولاً فيها بحفرياته.

ورغم أنه أخذ شيكارا والماركيز في جولة بين المدافن، فقد كان يتنقل بسرعة لم تستطع هي معها أن تملأ عينيها من النظر، على ضوء المصباح المترجرج، إلى النواويس بشكل واضح أو أن تحصل على انطباع حقيقي بالنسبة إلى تلك الآثار المندثرة منذ وقت طويل. ودوماً، عندما اعتادت أن ترافق أباها إلى أمكنة التنقيب عن الآثار، فيما مضى، كان يقول لها:

«لا تنظري فقط، بل فكري واشعري. دعي قوى الإدراك والملاحظة عندك تتصور كيف كان أولئك الناس يعيشون منذ تلك القرون الطويلة. حاولي أن تتصلي بهم وجدانياً. إن هذا سيعلّمك أكثر مما تفعل آلاف الكتب.»

وقد حاولت شيكارا اتباع نصيحته، ولكن لم تكن ثمة فرصة للقيام بشيء عدا الاستماع إلى ما كان البروفيسور ماربيت يشير إليه من أمكنة سبق ونهبت، وعمل كان هو وأبوها قد قاما به.

كذلك كان هناك العمال العرب الذين كانوا يحفرون

الارض لاظهار القبور المدفونة تحت التراب، ثم ينقلون السلال المليئة بالرمال بعيداً عن قاعات المدافن.

كان مرورهم لا ينتهي ما وجدت شيكارا معه أن عليها أن تحيد من طريقهم طوال الوقت بينما ترى عيونهم السوداء تحدق إليها بفضول.

وحدثت نفسها بأنها لا بد بدت لأعينهم، في ثوبها الأبيض هذا بالغة الغرابة، ولكنها شعرت بأنهم يقتحمون افكارها وساورها شوق مفاجيء إلى استعمال قوى الإدراك والملاحظة، كما سبق وعلمها أبوها. ربما من يعلم، تنبثق في ذهنها فكرة عما حدث له، إذا أمكنها أن تكون وحدها في هدوء المدفن.

لم ترقد أثناء راحتها هذه، ولكنها بقيت تضع الخطط لما ستقوله للماركيز. وعندما سمعته يصعد إلى المركب، نهضت وذهبت للقائه.

لم يكن في الصالون كما كانت تأمل، وإنما واقفاً على السطح ينظر إلى النيل.

كان المنظر رائعاً وقد بدا النهر الكبير يعجّ بالحركة.

كان هنالك أيضاً زوارق لا تفتأ تأتي إلى جانب اليخت عارضة للبيع فواكه وعقوداً، وسجاداً وغير ذلك من السلع.

وحاول الماركيز تجاهلهم، ولكن الباعة المصريين كانوا شديدي الاصرار فرفضوا الابتعاد.

لهذا، كان من المستحيل على شيكارا أن تحدثه في مثل هذه الأحوال، على انفراد.

وهكذا أخذا يتحدثان عن هذه المشاهد حيث أخذ الماركيز يشير لها إلى بعض المباني ذات الأهمية والقائمة

على الضفة المقابلة، وذلك إلى أن حان وقت استبدال ملابسهما لتناول العشاء.

نزلت شيكارا إلى قمرتها وارتدت أحد أثوابها الجديدة الجميلة، ثم نظرت إلى نفسها في المرآة وتذكرت الماركيز.

تاقت لأن تسأله، عندما كانا على سطح المركب، عن سبب نزوله إلى المدينة، ولكنها خجلت من ذلك كما خافت أيضاً.

ربما كان يتدبر أمر عودتها إلى انكلترا؟

ذلك أنه لم يعد ثمة شك الآن في أن أباها ميت وأن عمها الآن هو الوصي عليها دون منازع.

وفكرت في اللورد سترود الذي ينتظرها، وأدركت أنها إذا هي عادت فلن يعود بإمكانها النجاة منه وسيكون عليها أن تفعل ما يريده عمها.

قد تخاف من وجودها في مصر بمفردها، ولكن هذا لا يقارن بالخوف الذي ستجده إذا كان عليها أن تتزوج من رجل سيقابل صدها بصد مثله وجفاءها بجفاء.

وكانت تعلم أن الرعب والاشمئزاز سيتملكانها من أي رجل غير الماركيز.

وحدثت نفسها قائلة: «إن الموت هو ليس أكثر ما في الحياة هولاً.»

ومع ذلك، فقد كان ثمة شيء مخيف موحش في ظلمة المدافن جعلتها تحب أن تعيش.

رأت أن الموت هو الظلام والحياة هي أشعة الشمس ليس فقط في ذهن المصري القديم، وإنما في ذهن كل إنسان آخر. وفيما يتعلق بها، كانت أشعة الشمس تعني وجودها مع الماركيز.

ولكنها ما لبثت أن حدّثت نفسها، بتلك الكبرياء التي كانت دوماً جزءاً من شخصيتها، بأنها ستتركه إذا لم يكن يريدها، وذلك حسب وعدها له بأنها ستفعل ذلك دون غضب أو ثورة.

لقد كانت تعلم أنه سيحتقرها إذا هي أخلفت وعدها. ولهذا فهي تفضل أيّ شيء على أن يتركها شاعراً نحوها بالاشمئزاز لكونها أصبحت مصدر إزعاج لا يحتمل.

وصعدت إلى الصالون لتناول العشاء وقد رفعت رأسها عالياً، وهي تفكر في أنها إذا لم يكن بإمكانها أن تبدو بأناقة السنيورا، فهي على الأقل تبدو بأحسن مظاهرها.

وإذ كانت حرارة النهار قد ابتدأت تخف، فقد هبت نسائم باردة بعثت الانتعاش في الجو.

كانت المياه تلطم جوانب اليخت برفق، كما كان شذا الاعشاب المزهرة التي كانت ترتفع على ضفتي النهر.

كان من الممكن أن تستمتع شيكارا بكل هذا الجمال لو لم تكن أفكارها منحصرة بالماركيز.

كان مرتدياً ملابس العشاء. وعندما نهض واقفاً لدى دخولها، تبادر إلى ذهنها أن ليس ثمة رجل يماثله اناقة وروعة.

سألها: «هل ارتحت؟»

فابتسمت له بينما تابع دون انتظار لجوابها:

«إنني أدرك أن ما سمعته هذا النهار يشكل صدمة لك. كما أن الجوّ كان شديد الحرارة، ولهذا رأيت أن نتناول عشاءنا على سطح اليخت.»

فقالت: «هذا يسرني.»

ورأت الخدم قد نصبوا مظلة، كما وضعوا ستاراً وقاية

لهما من أعين الفضوليين من الزوارق المارة وذلك في المكان الذي سيتناولون فيه العشاء.

كانت المائدة مزينة بالازهار، وكان عليها شراب الليمون ما وجدته شيكارا لذيذاً جداً.

أخذ الماركيز أثناء تناول الطعام، يتحدث عن التاريخ المصري، وعندما أنهت شيكارا فنجان القهوة التركية الحلوة الذي كانت تتناوله، نظرت إليه قائلة: «إن لدي ما... أطلبه منك.»

«وما هو؟»

فساورها شعور بأنه كان متوجساً نوعاً ما.

لم يغب عنها، وهو يتحدث بكل ذلك الاهتمام أثناء العشاء، ان الحديث بينهما كان يبتعد عن النواحي الشخصية وذلك بالنسبة لكل موضوع كانا يطرقانه.

لقد بدا لها وكأنه كان يتعمد الابتعاد عن كل ما يمكن أن يقرّب بينهما أو يفسر بأي شيء عدا الاحاديث العادية التي تجري بين شخصين لا تجمعهما سوى معرفة بسيطة.

ولكنها، وهي تشعر بأنه لا يريدها، أخذت تكافح بجهد يدعو إلى الاعجاب، للالتزام بضبط النفس على النحو الذي ينتظره منها.

وإذ أصبحا الآن بمفردهما، وجدت الفرصة سانحة لكي تخبره بما تريد، فقالت بعد لحظة تردد:

«ربما ستستغرب ما سأقوله، ولكنني، أشعر بأن عليّ أن أعود إلى حفريات البروفيسور ماربيت.»

فسألها: «هذه الليلة؟»

«نعم، هذه الليلة عندما يكون العمال قد ذهبوا وكذلك البروفيسور ماربيت.»

فعاد يسألها: «ولماذا تريدين القيام بذلك؟»

فترددت لحظة، ثم قالت: «أريد أن أحصل على... الشعور الصادق بالمكان. إن لدي فكرة، قد تكون سخيفة، بأن ذلك قد يجعلني أدرك... ما حدث له.»

فسألها: «أتعنين أنك ستعلمين ذلك عن طريق الالهام؟»

فأجابت: «يمكنك أن تسميها بذلك. إنها ما كان أبي يطلق عليها اسم الحاسة السادسة، وكانت هذه ما كان يستعمل بنفسه عندما كان يريد أن يعلم ما إذا كانت إحدى الحفريات تستحق أن تقام. لقد كان على صواب دوماً، رغم أنه لم يكن هناك سوى الصخور والرمال.»

فسألها: «وأنت تريدين أن تقومي بهذه الرحلة بمفردك؟»

فلم تجب ولكنها نظرت إليه بعينين واسعتين متوسلتين.

ولم يكن ثمة حاجة إلى أن تنطق بما تريد منه فقد شعرت تقريباً وكأنها تقول بصوت مرتفع كم هي بحاجة إلى أن يكون معها...

وما لبث الماركيز أن قال: «حسناً جداً. إذا كان هذا ما تريدينه، فسآخذك إلى هناك.»

ورأى التألق في عينها، ثم حوّلت نظراتها بعيداً وكأنها تشعر بالخجل وهي تقول بهدوء: «أشكرك... جداً.»

ونزلت إلى قمرتها لتأتي بشال تضعه حول كتفيها تحسباً لبرودة الجوّ فيما بعد، ثم تناولت وشاحاً حريرياً لفت به شعرها إذ كرهت فكرة الغبار المتعالي طوال الوقت في ظلمة المدافن هناك، وهو يحط على شعرها.

وعندما صعدت إلى السطح، وجدت الماركيز في

انتظارها وقد وقفت على الشاطىء العربة المكشوفة التي سبق واستعملاها ذلك النهار.

كان ضوء النهار ما زال موجوداً، ولكن شيكارا كانت تعلم أنه لن يمضي وقت طويل حتى تكون الشمس قد غربت وسطعت النجوم والقمر فوق الاهرامات.

كانت بشوق إلى رؤيتها ليلاً والماركيز بجانبها، ولكنها الآن غير واثقة من شعوره وكانت الكآبة تغلف شعورها بأنه لن يتصرف، هذا المساء، بتأثير وجودها معه.

انطلقت بهما العربة بسرعة بينما كانت شيكارا تشعر بأن ليس لديها ما تقول، وما تشعر به هو سر تحتفظ به في قلبها.

وسرعان ما خلفا مساكن القاهرة خلفهما ليصبحا في الصحراء لتظهر أمامهما الاهرامات بجمالها الخلاب وقد بدت ذهبية في أشعة الشمس الغاربة.

وقال الماركيز: «من بين عجائب الدنيا السبع القديمة، لم يبق سوى الاهرامات تقاوم عوامل الزمن ويد الانسان المدمّرة.»

كان يتكلم بلهجة باردة لا أثر فيها للمشاعر ما جعل شيكارا تتوق إلى أن تسأله إن كان يشعر نحو الاهرامات بمثل ما تشعر هي به من غموض وإثارة.

فقد كانت تشعر دوماً أن الشخص، وهو يرى شيئاً مثيراً رائع الجمال، عليه أن يشارك شخصاً آخر إحساسه بذلك.

لقد كانت تفهم شعور والدها إزاء كل اكتشاف جديد له، بأن يعثر على عالم آثار آخر لكي يشاركه اكتشافه ذاك، وإذا لم يجد، فهو غالباً يعرض ذلك على زوجته أو عليها هي.

كان يبدو وكأن كل ما يهز الوجدان، يدفع المرء إلى أن لا

يكون من الانانية بحيث يحتفظ به لنفسه، وها هي ذي شيكارا تشعر الآن وكأنها تريد أن تهدي الماركيز شعورها بروعة الاهرامات الخالص هذا.

ولكنها على كل حال، لم يكن بإمكانها التعبير عن مشاعرها تلك، وهكذا استمرا في السير. وما أن حلّ الظلام، حتى كانا قد وصلا إلى الهرم الكبير فأوقف الحوذي العربة.

لم يكن هو نفس المكان الذي وقفا عنده في بداية النهار، ولكن على ضوء النجوم الخافت، كان من السهل رؤية الطريق القصير المؤدي إلى هرم أبي الهول.

وكان من الأسهل عليهما قطع هذه المسافة القصيرة من أن يحاولا إفهام السائق بأن يستدير بعربته إلى حيث يبغيان، وهكذا خرجت والماركيز من العربة.

طلب الماركيز من الحوذي الانتظار تحت شجرات نخيل كانت هناك، ثم تقدما على الرمال والأحجار نحو الطريق المؤدية إلى هرم أبي الهول.

كان الماركيز قد أحضر معه فانوساً كان هاينت قد وضعه لهما في العربة مع صندوق كبريت، وهو يقول: «هذا أحسن فانوس لدينا على اليخت يا سيدي.»

لقد شكره الماركيز عند ذاك، وهو يقول إنه واثق من أنه سيفي بالغرض.

وأخذت شيكارا تفكر الآن في أنها لو كانت جاءت بمفردها لنسيت إحضار قنديل معها. كما كانت تعلم أيضاً أنه كان يحمل في جيبه مسدساً. وكانت قد رأته يضعه في جيبه خفية وهي تصعد إلى ظهر المركب فادركت أنه احتياط حكيم، ولكنها لم تعلق بشيء.

لقد نبهها هذا أنه يرى في خطتها هذه ما يوحي بالخطر.

ولكنها لم تستطع أن تصدق أن ثمة أي خطر يكمن في زيارة يقومان بها إلى مدفن العجول أبيس، ولكنها افترضت أنه قد يكون ثمة خطر عند مداهمة اللصوص لزائري الاهرامات أو أي مكان آخر في الصحراء.

وقد جعلها هذا تدرك مبلغ حماقتها في التفكير في الذهاب إلى مثل هذه الاماكن بمفردها.

لقد كانت رأت حشود السائحين في القاهرة والاسكندرية ما أدركت معه أن حقيبة يدها وما تتحلى به من مجوهرات سرعان ما كان يختفي لو كانت بمفردها دون أحد يرافقها.

وصلا إلى مدخل ما بدا لهما أنه نوع من المعابد التي كانت تبنى للنبلاء من قدماء المصريين.

توقف الماركيز ليضيء الفانوس ما جعل من السهل رؤية الدرجات التي ينزلان بواسطتها إلى النفق الطويل الذي تحف به المدافن.

سارا معاً في ذلك الدهليز الحار المظلم الذي يملأ جوّه الغبار.

وكما توقعت، كان يسود المكان سكون الموتى الغريب ورائحة الماضي التي كانت تعتبرها موجودة في المدافن على الدوام.

سارت أمام الماركيز بينما كان ضوء المصباح يجعل من الغرف المدفونة فيها العجول تبدو وكأنها كهوفاً مظلمة.

وكان اللصوص قد دفعوا الاغطية الثقيلة عن النواويس التي كان بعضها ملقى على الأرض محطماً والبعض الآخر، بعد نهبه، قد عادت حركة الرمال التي لا تهدأ إلى دفنه ثانياً.

سارت شيكارا في النفق شاعرة بصعوبة التنفس لقلة الهواء، ولكنها ما زالت مصممة على الوصول إلى النهاية حيث القبور غير المنهوبة والتي ما زالت قيد التنقيب.

كان الفانوس يلقي بضوئه حولها، ما بدت معه للماركيز شبحاً عائماً يسري أمامه وقد التمع بياض الوشاح الذي لفته حول رأسها في الظلام.

وإذا بشيكارا تقف.

كانت قد وصلت إلى نهاية الممر تقريباً، فأرادت أن تفكر، أن تركز أفكارها كوسيط في غيبوبة، ليمكنها بذلك أن تستغرق في الماضي.

وفجأة، تناهى إلى مسامعهما خليط أصوات استدارت لترى الماركيز خلفها تماماً وقد أدار هو الآخر رأسه ينصت.

كان رجل يتحدث إلى الآخر باللغة العربية، وأدركت شيكارا أنهما كانا يهبطان إلى الدهليز خلفهما حيث غرف المدافن.

رفع الماركيز الفانوس ونفخ عليه فأطفأه. وإذ انتظرت وقد تملكتها الدهشة، مد يده يجذبها من الممر إلى جانب حيث المدافن.

تلمست سطح الناووس الصواني فوجدت مكاناً بينه وبين الحائط يسعهما هما الاثنين، شيكارا في الداخل والماركيز أقرب إلى الممر.

واقتربت أصوات الرجال وقد خفضوا من أصواتهم فلم تستطع شيكارا سماع ما كانا يقولانه.

ثم انتشر ضوء شمعة خفيف جعلها ترى عدداً من الرجال قد دخلوا غرفة الدفن.

انتقلت مبتعدة قليلاً حول الناووس لتجد أن الجدار الذي

يفصل بينه وبين مدفن عجل آخر، منهاراً وبذلك أمكنها أن ترى من خلال الناووس المهدم بجانبيهما ما يجري في الممر.

كان الرجال يتقدمون، وإذا بهم يتوقفون فجأة، ثم سمعت صوت قرقعة وكأنهم ألقوا بمعدات إلى الأرض الرملية.

وقال واحد منهم بالعربية: «الأفضل أن نشعل مزيداً من الشموع.»

فأجاب رجل آخر: «إننا سنكون بحاجة إليها. فالقبر غير المفتوح هو في نهاية الممر.»

وأجفلت شيكارا وقد أدركت من هم.

لقد كانوا لصوصاً جاؤوا لفتح القبر كما كان حدثهم البروفيسور مارييت. قبر العجل المدفون فيه منذ عهد رعمسيس الثاني.

وهو الذي كان سبق واكتشف، أما الثاني فما زال دون أن يمس.

وسرى الغضب في كيان شيكارا وهي ترى هؤلاء اللصوص يهمون بسرقة محتويات القبر وبهذا تضيع.

وفكرت في مواجهتهم لتصرخ في وجوههم عن رأيها في لصوصيتهم هذه، ولكن ما أن خطرت ببالها هذه الفكرة حتى سمعت أحد الرجال يقول:

«الأفضل أن يبقى واحد منا في الحراسة.»

فأجاب رجل آخر: «أنا احرسكم. ألم احرسكم عندما تدخل ذلك الرجل الانكليزي؟ وهو يهدد كالأسد؟ ولولا أن أسكتّه بنفسي لأخذكم جميعاً إلى السجن.»

ولا بد أن شموعاً أخرى أشعلت لأن شيكارا استطاعت أن ترى الرجال بشكل واضح فالرجل الذي كان يتحدث كان فتياً وعلى رأسه عمامة بيضاء.

وقال رجل آخر يبدو أكبر منه سناً: «أسكت يا علي، كفاك تفاخراً. فإذا سمعك أحد سيقبض عليك بتهمة القتل.»

فرد عليه الشاب متبجحاً: «إنني لست خائفاً ثق بي كما اعتدت من قبل. فقد خدمتك سكيني جيداً، وستخدمك مرة أخرى إذا صادفنا أحد.»

فقال الرجل مكرهاً: «لاباس إذن، خذ مكانك في الحراسة، ولنبدأ نحن بالعمل.» وانتبهت شيكارا فجأة إلى أن الماركيز كان قريباً منها. كانت تعلم أنه قد أخرج مسدسه من جيبه، وأنه كان منزعجاً للغاية.

وكان قد تملكها، لدى سماعها ما قاله الرجل، رعب لا يوصف.

إنهم الرجال الذين قتلوا أباها.

والأكثر من ذلك، أن هؤلاء المجرمين سيقتلونها دون شك مع الماركيز إذا هم اكتشفوهما.

وشعرت بنفسها ترتجف وهي تراهم ستة رجال، خمسة منهم يزاولون الحفر، أما السادس والمدعو علي فيقوم بالحراسة.

وفكرت مذعورة بأن من المستحيل أن يتمكن الماركيز من حماية نفسه وحمايتها بمسدسه هذا الذي لا يحتوي على غير طلقتين، وذلك من هؤلاء الرجال الذين لن يترددوا في قتلهما لكي لا ينكشف أمرهم.

وسمعت رجلاً آخر لم يكن تكلم من قبل، وهو يقول: «أليس من الأفضل أن نفتش المكان لكي نطمئن إلى أن لا أحد هناك قبل أن نبدأ بالعمل؟ تذكّر كيف فاجأنا الرجل الانكليزي.»

فأجاب الرجل المسن الذي كان يتكلم سابقاً: «لو كان هنا أحد، لرأينا الضوء.»

فقال علي: «سأفتش أنا المكان، فابدأوا أنتم العمل قبل زوال الليل فهو قصير.»

فسأل آخر: «من ذا الذي يصدر الأوامر؟»

فأجاب واحد منهم: «إن عليّ يتكلم بالمنطق. فإن هنا أماكن كثيرة يمكن الاختفاء فيها، ونحن لا نريد أن يفاجئنا أحد.»

فقال آخر: «هذا صحيح. فأنت تذكر ما حدث الاسبوع الماضي في أيودوس.»

فقال واحد منهم: «لقد نجونا حينذاك بأعجوبة.»

وشعرت شيكارا بذراع الماركيز اليسرى تتحرك. وأدركت أنه يحمل المسدس بيده اليسرى وأنه يفعل ذلك لأنه شعر بخوفها.

كانت ترتجف لأن الوضع كله كان غريباً مخيفاً. أضواء الشموع المهتزة، رؤوس الرجال التي كانت تراها من فوق الجدار المنهار، وحديثهم الذي كشف عن أشياء كثيرة والتي وحدها فهمتها لمعرفتها بالعربية التي كان الماركيز يجهلها.

ولكنها كانت تدرك أنه لا بد يعي خطورة الوضع وأنه يعرف أنها خائفة.

وكان الماركيز في الواقع، يعلم جيداً مقدار الخطر المحدق بهما، ومع أنه لم يكن يفهم العربية، إلا أنه كان يدرك جيداً مبلغ القسوة التي ستبدر من لصوص المدافن هؤلاء نحوهما إذا هم اكتشفوا مكانهما.

فعلى مدى الاجيال، كانت هناك مواجهات وجرائم قتل بين رجال العصابات.

وكل علماء الآثار يخبرون قصصاً عن انهم كيف أرغموا

على قتال اللصوص الذين يهاجمون أحياناً مركز الحفريات حتى في وضح النهار.

وقد أدركه العجب من عدم وضع ماريبت لحارس عند مركز حفرياته، وافترض أن ذلك لأن النواويس لم تكن ذات أهمية من وجهة نظر اللصوص كقبر فرعون.

وعندما زار المكان عند الصباح، علم بأنه في أيام معينة من السنة أو في مناسبات الطقوس الجنائزية عند موت أحد عجول أبيس، كان أهالي ممفيس يتوافدون لزيارة الضريح.

ولهذه الذكرى، كانوا يتركون تذكاراً هو عبارة عن حجر مربع مستدير في أعلاه حيث كان يثبت في جدران المدفن.

وكان هذا الحجر تنقش عليه عبارات التكريم واسم الزائر وأسرته.

وكان الماركيز يعلم أن تلك الأحجار كانت ذات أهمية تاريخية كبيرة، رغم أنها ليست ذات قيمة مادية بالنسبة للصوص.

فإذا ما شوهت معالمها أو أتلفت بالحفر، فإن تاريخ مصر سيصبح هزيلاً إلى حد كبير.

ولهذا، كان من الاهمال بالنسبة إلى البروفيسور ماريبت، أن لا يتوخى المزيد من الحيطة والحذر.

ولكن الماركيز عاد فتساءل عما إذا كان بإمكانه حقاً أن يخطر بباله أن اللصوص سيأتون إلى آخر قبر وفي مثل هذا العدد الكبير؟

وها هو يتساءل الآن عما إذا كان من الأفضل أن يقتل واحداً منهم، ثم يتمنى أن يحمل الباقين على الهرب.

كان يعلم، دون أن يفهم كلمة مما كانوا يقولون، أنهم لن يترددوا، إذا رأوا ذلك مناسباً، في أن يقتلوه وشيكارا، ثم

يدفنون جثتيهما في الرمال حيث ليس من المحتمل أن يعثر عليهما أحد.

وكان قد سبق وعرف أن هذا ما كان حدث للبروفيسور بارليت والد شيكارا. وشتم نفسه لحماقته إذ ترك شيكارا تقنعه بالمجيء إلى هنا هذه الليلة دون أن يحضر معه عدداً من بحارته لحمايتهما.

لو أنهما فقط كانا توقفا في المدخل العام الذي كانا دخلا منه هذا الصباح، لكان اللصوص قد رأوا عربتهما، ما يجعلهم دون ريب، يؤجلون سرقتهم إلى ليلة أخرى.

ولكن الذي حدث هو أن العربة التي تنتظرهما كانت واقفة تحت الاشجار فلم يلحظها أحد.

واشتدت أصابع الماركيز على الزناد وهو يرى الرجال يتناولون معداتهم للمباشرة بالعمل، بينما أخذ واحد منهم يشعل شمعة على أول ناووس في مدخل المدفن.

إنهم سرعان ما سيصلون إلى حيث كانا، هو وشيكارا واقفين.

فقد كان من الصعب عليهما أن يختبئا من أضواء الشموع.

وقد أدرك الماركيز الآن أن الناووس سليم.

لم تكن رؤيتهم لهما سوى مسألة وقت، وقرر الماركيز بأن الأفضل له أن يقتل واحداً منهما برصاصة، ويحتفظ بالثانية للمجابهة الأخيرة فيما لو هاجموهما.

وإذا به يسمع صوتاً غريباً غير متوقع.

ظن، لأول وهلة، أنه لم يسمع شيئاً، وأن ما ظنه ليس سوى تخيلات منه.

ولكنه ما لبث أن رأى اللصوص يجمدون في أماكنهم ينصتون إلى ما سبق وسمعه هو.

كان صوتاً عميقاً بالغ الخفوت يكاد يشابه طنين النحل. ثم ابتدأ يعلو ويعلو ليصبح رناناً ملحّاً بحيث أخذت الجدران، حتى السقف نفسه، تردد الصدى.

وازدادت قوته تباعاً إلى أن ذهل الماركيز بعد ان أدرك أنه يصدر عن شيكارا نفسها.

كان يبدو أنه يصدر من أعمق أعماقها بينما استمر يعلو ويعلو.

لقد بدا هذا الصوت الآن وكأنه يرتد عليهم من أعماق الظلام صافعاً آذان المستمعين.

كان صوتاً غريباً، مخيفاً ويشدهم في نفس الوقت، لسماعه.

بدا وكأن اللصوص قد وقفوا متعجبين، وكذلك كان الماركيز في الواقع.

وفجأة، إذا بصرخة تصدر عن علي: الاشباح. الاشباح. ومن ثم اندفع هارباً يتبعه الآخرون.

وما زال ذلك الصوت المخيف غير البشري يصدر عن شيكارا، إلى أن تلاشى ضوء الشموع التي كان اللصوص الهاربون قد ألقوا بها إلى الرمال، وهم يتسابقون هاربين.

عند ذلك لم يبق سوى الظلام والصوت الذي كان يصدر عنها يهتز في ذلك السكون.

وبقي الاثنان، شيكارا والماركيز، جامدين في مكانهمالحظة، استدارت بعدها نحوه.

كانت ما تزال ترتجف، ولكنها لم تعد خائفة. لقد تلاشى من ذهنها كل شيء ما عدا الماركيز، وقربه منها.

وهمست، بعدما لم تعد تستطيع كتمان عواطفها: «أنا أحبك... أحبك.»

فقال بصوت أجش غير ثابت: «فلنحاول الخروج من هنا، يا عزيزتي، ما دام بإمكاننا ذلك الآن.»

فتملكتها السعادة لكلمة عزيزتي هذه. وكان هو في هذه الاثناء يخرج من خلف الناووس إلى الممرّ، بينما تبعته هي ممسكة به بيد واحدة، دون أن ترى شيئاً.

وانحنى يشعل عود كبريت ثم ينير الفانوس.

قال: «يجب أن نكون على حذر بالغ لئلا يكون أولئك اللصوص يترصدون في الخارج.»

فقالت بصوت خافت: «كانوا... سيقتلوننا.»

«إني واثق من ذلك.»

«لقد قتلوا أبي. ذلك الفتى المدعوّ علي أخذ يتباهى بذلك.»

فوقف الماركيز حاملاً الفانوس بيده، ثم قال: «يجب أن نخرج بحرص شديد. ان كل ما يهم الآن هو أن أخرجك من هنا سالمة.»

وسارا ببطء في الممر، وكانت عينا الماركيز تحدقان إلى الأمام، بينما كان قلب شيكارا يخفق بجذل.

لقد قال لها يا عزيزتي. لقد كانت قريبة جداً منه فلو ماتا الآن ما كان ذلك بالنسبة إليها، بالأمر الهام.

وأرادت أن تصرخ بصوت عالٍ: «أحبك... أحبك.»

ولكنها كانت تعلم أنه قلق.

وعندما وصلا إلى النفق الصاعد إلى أعلى، تقدمها فرأته يحمل مسدسه في يد بينما الفانوس في اليد الأخرى.

سارت خلفه، وعندما أصبح ضوء القمر والنجوم كافيين ليريا الطريق، أطفأ الماركيز الفانوس.

وقفت شيكارا بجانبه في المدخل عندما أخذ هو ينظر من خلال أعمدة مهدمة إلى الصحراء في الخارج.

كان هناك صخور ضخمة أسبغ عليها الليل وضوء القمر جمالاً غريباً لم يكن موجوداً في وضح النهار.

وكان هناك الهرم المدرج الذي كان يتطاول نحو الأعلى ولكنهما لم يستطيعا رؤية أي إنسان أو أي شيء يتحرك.

وضع الماركيز مسدسه في جيبه، ثم أمسك بذراع شيكارا وجرّها مسرعاً قدر إمكانه فوق الرمال نحو أشجار النخيل حيث تركا العربة.

آلمت قدميها الاحجار الخشنة كما دخلت حبيبات الرمال في حذائها، ولكنها لم تهتم بكل ذلك إزاء ما كانت تشعر به من سعادة جارفة.

ووصلا إلى العربة.

وقفز الحوذي الذي كان نائماً تحت إحدى الاشجار، لدى وصولهما، ثم صعد إلى مقعد القيادة في العربة.

ساعد الماركيز شيكارا على الصعود إلى العربة، ثم جلس بجانبها بعد أن وضع المصباح على المقعد الأمامي.

وما أن انطلقت الجياد، حتى نظر إليها.

شعر بها ترتجف، ورأى إمارات السعادة تتألق في وجهها.

هتف يقول: «إنك آمنة الآن، يا غاليتي. أخبريني كيف أنقذتنا. كيف استطعت اصدار ذلك الصوت الغريب غير البشري.»

فأطلقت شيكارا ضحكة قصيرة تفيض بالسعادة. وسألته: «ألا تدري ما هو؟»

فأجاب: «ليس لدي فكرة عنه. ولا أستطيع أن أتصور شخصاً صغيراً مثلك يمكنه أن يصدر صوت فرقة موسيقية كاملة من أعماق الأرض.»

فقالت: «إنها تراتيل البونيين. ولأن كل واحد منهم يكرر الترتيل مرة بعد مرة، فذلك يجعل أصواتهم عميقة واضحة.»

«وكيف تعلمت إلقاءها؟»

فأجابت: «لقد علمني أبي ذلك حين كنت صغيرة جداً. وقد سرني هذا كثيراً لأنه كان يدغدغ سقف حلقي ثم يخرج من أنفي. لقد كان يجعلني أرددها مرة بعد مرة إلى أن استطعت إداءها على أكمل وجه.»

وعمق صوتها وهي تتابع: «لقد كنت نسيتها تقريباً، ولكن فجأة، عندما سمعت أولئك الرجال يقولون إنهم سيفتشون المكان... وأننا إذا هم عثروا علينا، سنقتل... عند ذلك أدركت فجأة ما عليّ أن... أفعل.»

«لقد انقذتنا يا عزيزتي الماهرة.»

وعندما رفعت نظراتها إليه، قال برقة فائقة: «إني أحبك. لقد أحببتك، كما أظن، من وقت طويل جداً. وفي الليلة الماضية كنت خائفاً من أنك كنت تعنين ما تقولين عن كرهك للرجال، وفي هذه الحالة، أنت تكرهينني كذلك.»

فأجابت: «إنني أحبك... ولكنني كنت أعلم أنك تكره النساء... فظننت أن كلامك لي ذاك رغم أنه كان أروع حديث في حياتي، لم يكن يعني لك... شيئاً.»

فقال: «لقد كان ذلك يعني بالنسبة إليّ أكثر مما أستطيع إخبارك به. لقد أدركت حينذاك كم أحبك وأنني لم أعرف الحب الحقيقي من قبل.»

وضحك، ثم تابع يقول: «لقد كافحت شعوري هذا نحوك، يا شيكارا، وقتاً طويلاً، وفي الواقع، طوال مدة رحلتنا في البحر المتوسط.»

فتمتمت: «يا ليتني كنت أعلم. لقد أدركت أنني أحبك عندما كنا في... لشبونة.»

ابتسم وهو يقول: «هل غرت، يا غاليتي؟»

فأجابت تعترف: «لقد غرت بشكل هائل... مرعب... لقد كان شعوراً لم أعرفه قط من قبل... وكان بالغ الايلام.»

فقال يطمئنها: «لم يكن ثمة سبب يجعلك تغارين، تماماً كما أنه ليس لك أن تغاري من أي امرأة في المستقبل لأنك، يا كارهة الرجال الصغيرة الرائعة المحبوبة، لأنك مختلفة تماماً عن أي امرأة أخرى عرفتها من قبل.»

فهمست: «ربما، بعد أن أحببتك، سأصبح... مثل بقية النساء الأخريات...»

فأجاب: «لا يمكن أن تصبحي كأي امرأة أخرى وذلك لسبب بسيط وهو أني أحبك. إنني أحبك أكثر مما أستطيع وصفه. وسيستغرق إخباري لك بمقدار حبي، حياتي كلها.»

فقالت متوسلة: «أخبرني، أرجوك.»

فقال بعنف: «أحبك... أحبك.»

وأدركت أنه ينفس، بعنفه هذا، عما كان لا بد عاناه من عذاب حين أدرك أن حياتهما في خطر.

وعادت تردد: «أحبك. أحبك.»

كانت تشعر وكأنهما عادا إلى بطريقة ما من القبر... القبر في تلك الصحراء حيث ملايين الناس ماتوا ودفنوا كما تدفن في أعماقها أسرار كثيرة لن تكتشف أبداً.

ولكن كان من الصعب أن تفكر شيكارا في أي شيء عدا ما أثاره الماركيز في نفسها من سعادة هي أشبه بنور متألق يحيط بهما.

دخلت بهما العربة شوارع القاهرة حيث البيوت والناس على الجانبين.

وعندما وصلا إلى اليخت، نزل هو أولاً لينزلها من العربة ثم يتوجها معاً إلى الصالون.

أسرع إليهما الخدم، وعندما أقبل هاينت، ناوله الماركيز المسدس من جيبه.

فسأله هاينت: «هل تعرضتما لأي ازعاج، يا سيدي؟»

فأجاب الماركيز: «إننا آمنان الآن، بفضل الآنسة بارليت، ولكننا مررنا بمحنة في غاية السوء يا هاينت، ونحن الاثنان بحاجة إلى فنجان قهوة.»

وجيء بالقهوة. وعندما أصبحا بمفردهما، قال برقة: «مرحبا بأشجع امرأة عرفتها.»

فأجابت: «إنني لست شجاعة في الحقيقة. إنك تعلم كم أخاف البحر، وقد شعرت في الحقيقة، بخوف شديد عندما سمعت أولئك الرجال يقولون إنهم قتلوا أبي وسيقتلون أي شخص آخر... يتدخل في عملهم.»

فقال باسماً: «ومع ذلك فقد أنقذتنا.»

فقالت بصوت خافت: «إن هذا قضاء وقدر. ربما منذ تلك السنوات، عندما كنت فتاة صغيرة، قد ألهم أبي... أن

يعلمني ما فعلته هذه الليلة وبهذا تنقذ حياتنا نحن الاثنين.»

فقال: «أنا واثق من أن كلامك هو الصواب.»

فسألته: «هل تؤمن بذلك حقاً؟ أم أنك تقول هذا لمجرد إرضائي؟»

فأجاب: «إنني أخبرك بالحقيقة. لا أظن أحداً جاء إلى مصر، وتعرض لما تعرضنا له دون أن يؤمن بأن ثمة قدرة تفوق قدراتنا. وأن الله هو الذي ينقذنا، وهو الذي يدمّرنا.»

«إنه... أنقذنا.»

فقال: «إني أحبك. وسأظل أقول لك ذلك لأن هذا شيء جديد عليّ لم أشعر بمثله من قبل.»

«وبماذا تشعر؟»

«أشعر بأنني واقع في الغرام إلى أقصى حد.»

الفصل السابع

وقفت شيكارا قبالة النافذة تنظر إلى الصحراء.

لم يكن في نظرها، ما هو أجمل ولا أروع من هذه الاهرامات الثلاثة في ضوء القمر، وإلى اليسار منها بقليل، كان هناك أبو الهول المذهل.

لقد كانت تحلم بأنها، يوماً ما، سيكون بإمكانها أن تقف مع الماركيز يتأملان الصحراء، ولكنها لم تتصور قط أنهما سيقيمان فيها يتمتعان بجمالها.

لم يكن هناك سوى السماء فوقهما، والصحراء الممتدة دون نهاية تحتهما.

لقد تزوجا هناك، وبفضل السفير الانكليزي، تمكنا من استعارة هذه الفيلا القائمة على رمال الصحراء نفسها.

كان الماركيز قد ترك شيكارا الليلة الماضية في وقت متأخر، فذهبت إلى النوم والسعادة تغمرها.

كانت من السعادة بحيث خافت أن تنام ثم تستيقظ لتجد أن كل ذلك لم يكن سوى حلم.

وكان الماركيز قد قال لها برقة: «يجب أن تنامي، لقد عانيت كثيراً هذا النهار وأنا أعلم أنك متعبة.»

فأجابت: «معك لا أشعر بالتعب.»

فقال: «إن أمامنا الحياة كلها وسنظل معاً دائماً ولن أتركك أبداً.»

«لا يمكن لذلك... أن يحدث.»

فأجاب بخليط من الجد والمزاح: «لست واثقاً من ذلك. ربما ستهربين مني بواسطة حبل مدلّى من نافذة، أو تختبئين في يخت رجل غير معروف، ثم لا أعثر عليك بعد ذلك أبداً.»

فضحكت، ولكنها أدركت أن وراء كلماته هذه نية للاحتفاظ بها، ما أشعرها بالبهجة وهي ترى مقدار حرصه عليها واعتبارها ضرورية له.

قال وكأنه شعر بما تفكر فيه: «عندما تصبحين زوجتي، سأصرّ على أن تكون تصرفاتك أكثر حرصاً مما كانت حتى الآن. فالذعر يتملكني للمجازفات التي سبق وقمت بها.»

فقالت: «لولا وجودك معي... لتملكني الخوف. أفرض... أفرض فقط أنني عندما هربت منك عند نهاية الاصطبلات ولم يعترضني ذلك الشحاذ... ربما ما كنت وجدتك بعد ذلك أبداً.»

فقال الماركيز: «على كل حال، كنت ستستمرين في كراهيتك للرجال وتجنبهم إلى أن أعثر عليك مرة أخرى.»

فأجابته بلهجة الاتهام: «إنك ما كنت لتبحث عني.»

فأجاب: «ربما كنت سأفعل ذلك دون وعي مني. ولكنني أظن أننا، في النهاية، لن نضيّع بعضنا البعض، فهو قدرنا، يا غاليتي، أن نجتمع معاً. قدرنا أن نقع في الحب.»

فقالت بشيء من التواضع: «ليس غريباً أن أحبك... ولكن أن تحبني أنت...»

قال: «إنك رائعة الجمال إنك شجاعة، إنك رقيقة ومتفهمة. فماذا يريد الرجل أكثر من هذا؟»

فقالت بحرارة: «أريد أن تجتمع في شخصي كل هذه الصفات لأجلك فقط.»

«لأنني أحبك، ولأنني سأرعاك بقية حياتك، لهذا أرسلك إلى قمرتك.»

فهمست: «لا أريد أن... أتركك.»

«وأنا أيضاً لا أريد أن أتركك، يا عزيزتي الغالية، ولكن لهذه الليلة فقط.»

«هل تعني حقاً أننا... سنتزوج غداً؟»

«لقد قمت عصر هذا اليوم بكل اجراءات حفلة زفافنا.»

فحملقت شيكارا فيه مذهولة. «عصر هذا اليوم عندما نزلت إلى الشاطىء؟ لقد تساءلت إلى أين تراك ذهبت. ولكن كيف عرفت... كيف أمكنك أن تكون واثقاً من... أنني... سأتزوجك؟»

فسألها: «هل نسيت سهرتنا تلك؟ لقد علمت عند ذاك أننا لبعضنا ولن يفرق بيننا سوى الموت.»

تنهد وهو يتابع: «ولكنني، في نفس الوقت، كنت خائفاً. فرغم أنني كنت أشعر بأنني واثق من حبك لي، إلا أنني لم أكن متأكداً من أنك ستعترفين بذلك في عقلك الواعي، وأنك لم تعودي تكرهين الرجال كما كنت أخبرتني.»

«ولكنك، مع هذا، قمت بإجراءات الزواج.»

فأجاب: «عندما قابلنا البروفيسور مارييت، أدركت أن أباك قد مات. ولأنني أعرف ما أنت عليه من استقلال في الشخصية، وكذلك إذا سمحت لي بالقول، النقص المؤسف في شخصيتك، خفت أن تقومي بأمر جنوني كالهرب مني مثلاً.»

فهتفت شيكارا وهي تتذكر إلى أي حد كان اليأس يتملكها من توقع انفصالها عنه، وكيف كان كيانها يهفو إليه، هتفت تقول: «ما كنت لاتركك... بكامل إرادتي.»

فسألها: «وكيف كان لي أن أعلم بذلك؟ وكنت أعلم أن علي أن أرعاك. إن فكرتك السخيفة عن العمل لكي تعتاشي، كانت غير عملية مطلقاً. فانت أجمل من أن يتركوك بمفردك في العالم، يا عزيزتي.»

«ولهذا تدبرت أمر زواجنا؟»

«عندما أخبرت السفير البريطاني بما حدث لأبيك وافق على أن تتزوجي فوراً وأنه سيهيء لنا كل الأوراق والمستندات الضرورية لذلك.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «دعي لي كل شيء. إنني المسؤول عنك من الآن فصاعداً وأنا لن أدعك تقلقين لأي شيء... ربما علي أنا فقط.»

«أنا أريد أن أعتني بك... أريد أن أقوم نحوك باشياء لا يستطيعها أحد آخر.»

فأجاب: «سأجعلك مشغولة بي على الدوام أما أجرك، يا غاليتي، فسيكون حباً.»

وقد ضحكت حينذاك، ولكنه رفض متابعة الحديث إذ قادها إلى قمرتها، وهو يقول: «مساء الغد سنكون معاً. فنامي جيداً يا غاليتي الحلوة لأنني أريدك أن تكوني، يوم عرسك أجمل من أي وقت مضى.»

ورأت شيكارا أن من المستحيل أن لا تبدو سعيدة رائعة الجمال في يوم عرسها.

كان اهتمام الماركيز بها في كل التفاصيل جعلها تدرك كم ستتغير حياتها عندما تصبح زوجته.

وحظها كان جيداً، لأن لديها ثوب أبيض جميل جداً من بين الأثواب التي اشترتها من لشبونة، ولم تكن قد ارتدته بعد. وكان في الواقع ثوباً للمساء ولكنه خالٍ من الزخارف والتصنع كأثواب السهرة.

كانت فتحة العنق مزركشة بأزهار بيضاء صغيرة مطرزة على دانتيل، ونفس الشيء كان حول حاشية التنورة الواسعة.

وبدت شيكارا في هذا الثوب فتية جداً وبريئة للغاية.

كانت قد أنهت ارتداء ملابسها وأخذت في تصفيف شعرها، عندما أحضر إليها هاينت صندوقاً يحتوي على نقاب من الدانتيل غاية في الرقة والجمال ومعه إكليل مصنوع من أزهار بيضاء وبرتقالية.

لقد كان هذا، كما رأت شيكارا، كل ما كانت بحاجة إليه لكي تبدو عروساً حقيقية.

وعندما خرجت من قمرتها، وقد غمرها شيء من الخجل، كان الماركيز في انتظارها في الصالون حاملاً باقة من نفس الازهار المصنوع منها الاكليل، وقد أضيفت إليها أزهار الزنبق والأوركيد.

رفعت رأسها لتشكره، فنظر إليها عدة ثوانٍ قبل أن يقول: «إنك لست رائعة الجمال فقط، بل إنك تمثلين كل ما كنت أصبو إليه ظاناً أنني لن أجده أبداً في زوجتي.»

فقالت: «إنني أريد أن أرضيك... أن أقوم بكل ما... تريده

مني. ولكن... أفرض أنك بعد أن تزداد معرفة بي... ستتملكك... خيبة الأمل؟»

فابتسم الماركيز: «إنني على استعداد لأبرهن لك على أنه لن يصيب الواحد منا خيبة الأمل من الآخر، وإنما سينمو حبنا ويقوى على مرّ السنين.»

ابتسم وهو يضيف قائلاً: «إنك بالغة الغموض، أيتها المغامرة الصغيرة. وسأبقى خائفاً على الدوام من أن يصيبك الملل من الحياة معي ما يجعلك تتطلعين إلى مغامرة في مكان آخر.»

فارتجفت وهي تفكر في ما شعرت به من خوف الليلة الماضية، وقالت: «إنك تعلم من أعماقك انني... جبانة. إنني لا أريد أن أشعر بالخوف... بل بالأمان معك... كما أشعر الآن.»

فقال: «إنني سأرعاك وأحبك بقية حياتنا وأنا أشعر بأننا لن نفترق حتى الموت.»

لم تكن قد سمعته قط وهو يتحدث بهذه اللهجة الجادة.

وعندما تم عقد قرانهما، شعرت بتأثره العميق والذي كان يشابه تأثرها.

وعندما أصبحا في العربة مبتعدين، قالت برقة زائدة: «أحبك. لم أكن أعلم أنه كان بالامكان أن يزداد حبي لك عما كان عليه، ولكن هذا ما حدث.»

فأجاب: «سأحدثك عن مقدار حبي لك فيما بعد ولكن علينا الآن، يا زوجتي العزيزة، أن نذهب إلى السفارة الانكليزية لتناول الغداء. فأنا لم أستطع رفض دعوة السفير لذلك.»

لقد كان السفير أحد شهود عقد القران، وقد تبعهما في عربة أخرى.

وأدركت شيكارا أن الاحتفاء بهما هو أمر واجب بالنسبة إلى أهمية مركزه.

كان مبنى السفارة الانكليزية جميلاً جداً بحديقته الغنية بمختلف أنواع الزهور، ومع أن الحفلة التي أقيمت فيها احتفاء بزواجهما كانت صغيرة، إلا أنها كانت بالنسبة إلى شيكارا، حافلة بالبهجة.

لقد كان احتفاء السفير وبقية الحاضرين بهما بالغاً ولم يخبرها الماركيز بأنهما لن يعودا إلى اليخت بل إلى فيلا، إلا بعد أن استقلا العربة مبتعدين عن السفارة.

قال: «سنمضي هناك ثلاثة أو أربعة أيام، أو أكثر، حسب ما تريدين. فأنا أريد أن نكون بمفردنا يا عزيزتي.»

وعندما رأت الفيلا، والتي كانت شيكارا سبق وعلمت أنها معارة للسفارة الانكليزية من رجل فرنسي عاد إلى بلاده، أدركت أنه لو كانت سئلت أن تختار مكاناً تمضي فيه شهر العسل، لما اختارت سواها.

كانت الفيلا مبنية على حافة الصحراء وكانت مزيجاً من فن البناء الشرقي والغربي، فهي تضم الرفاهية الغربية والجمال الشرقي الغريب.

وهتفت مسرورة لدى رؤيتها السجادات الرائعة التي تزين الأرض والجدران معاً، والتحف التي كانت تعلم أنها أحضرت من مدافن «وادي الملوك.»

كانت غرفتها بيضاء باردة منعشة، كما أن السجادات

الناعمة، والمرايا الأثرية على الجدران منحها جمالاً خلاباً جعلها تفكر في أنها بداية جيدة لحبهما.

كما عبق شذا أزهار الزنبق والأوركيد التي أحضرها الماركيز في الجوّ مضيفاً رقة غريبة للنسائم الجافة التي كانت تهب من الصحراء.

وفي وسط المنزل، كانت هناك باحة باردة في وسطها نافورة ترش مياهها على النباتات الغريبة، والياسمين المتسلق على الجدران الخارجية للفيلا.

كانت الحديقة تضم كذلك أشجار البرتقال والصنوبر، هذا إلى أماكن صغيرة خفية حيث يمكنهما الجلوس بمفردهما تحيط بهما الشجيرات العطرة بينما الرمال تمتد أمامهما إلى ما لا نهاية.

وإذ نظرت شيكارا إلى الصحراء التي كانت أشبه ببحر عظيم من الوحشة يسبح في ضوء القمر، أدركت كيف أن بإمكان هذه الرمال الممتدة نحو الأفق أن توجد الخوف أو حتى اليأس في بعض أذهان الناس.

ثم أدركت أن المصريين الذين كانت فكرة الموت تتملكهم على الدوام، كما قيل مرة بأن حياة المصري هي دوماً رحلة نحو الموت، أن المصريين أولئك قد تركوا في هرم أبي الهول رمز الامل.

لقد كان ذلك وعداً بالحياة قد لا يكون كثيرون قد فهموه.

كان بإمكانها أن ترى الخطوط الخارجية لشكله الغريب ورأسه المحطم.

لقد كان ينكر دوماً كشيء غامض، ولكنها شعرت، وقد تكون مخطئة، بأنها تعلم ما كان المصريون يقصدون بإقامته.

لن تشعر بعد الآن بالوحدة أو التفاهة. إن لديها مكانها في هذا الكون، فما الذي كان يمكن أن يحدث لها بوضوح أكبر من هذه الأحداث التي تتالت عليها لكي تجعلها، حيث هي الآن... زوجة للماركيز؟

وما أن فكرت فيه، حتى فتح الباب خلفها ودخل الماركيز.

وعندما رآها واقفة عند النافذة، تقدم ووقف بجانبها.

ورأى على ضوء القمر، عينيها ووجهها كله وقد كسته سعادة لوجوده.

سألها: «ما الذي تفكرين فيه، يا غاليتي؟»

«كنت أفكر في... فيك وفي حبنا.»

«وهل من الممكن أن يفكر أيّ منا في شيء آخر هذا النهار؟»

فقالت: «كنت أيضاً أفكر في أنني لن أشعر بعد الآن بالوحدة أو التفاهة. إنني أعلم الآن ما كنت أبحث عنه رغم أنني لم أكن أدركه. والسبب الذي كان يجعلني قلقة شقية، ولماذا كنت أكره الناس لا لشيء إلا لأنه لم يكن في إمكانهم أن يمنحوني ما أريد.»

فسألها رغم علمه بالجواب: «اخبريني عما يكون هذا.»

فأجابت: «إنه الحب. الحب الذي أشعر به... نحوك... والذي أظنك تشعر به... نحوي.»

فضحك برقة وهو يقول: «إذا كنت ترتابين في حبي، فعليّ أن أثبته لك.»

فنظرت شيكارا إلى جمال ضوء القمر فوق الصحراء ثم قالت: «هنالك الكثير عليك أن... تعلّمني إياه... الكثير الذي

على أن أتعلمه... ولكنني أحبك، لقد أصبح كل شيء سهلاً... لأن العالم بالنسبة إلينا... مليء بالحب.»

قال: «إني أحبك. إنك لي، يا عزيزتي، إنك لي. ولن أدعك تذهبين أبداً.»

كان ما يشعران به هو الحب في اكمل مظاهره، الحب الجارف القاهر كتلك الصحراء التي تمتد أمامهما، وكذلك الحب الذي يكتسح المخاوف.

تمت